مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الانسانية، م٢٩ع٥ ص ص: ١٤٩– ١٩٨ (٢٠٢١م)
DOI:10.4197/Art.29-5.6

القيم الحجاجية للبديع مناظرة أبي سعيد السيرافي لمتى بن يونس القنائي أنموذجًا

أمينة بنت سعود بن خيشان القرشي
الأستاذ المساعد بجامعة الباحة
كلية العلوم والآداب بالمندق، تخصص البلاغة والنقد

مستخلص. دراسة التكوين العلمي للسيرافي، وبيان أثره في الحجاج البلاغي، من خلال مناظرته لمتّى، والبحث عن روافد المناظرة في الدرس البلاغي، ثم الوقوف عند القيم الحجاجية لأسلوب البديع؛ حيث الجمع بين الوظيفة الجمالية ومقتضيات الإقناع، فالطباق، والمقابلة، ومراعاة النظير آلات بلاغية تعمل على توجيه المعاني نحو الإقناع والإمتاع معًا.

أهداف البحث:

١. تتبع القيم الحجاجية للبديع في مناظرة أبي سعيد السيرافي، فهي ظاهرة تستوجب التتبع؛ لحسن الإبانة عن المعاني العقلية المرادة في صور أبهى وأزين وآنق وأعجب.

٢. ربط الظاهرة الوظيفية للبديع بمقتضيات الإقناع، فقد يُتوهم أن البديع بوظيفته التحسينية بعيدًا عن المحاججة والإقناع.

٣. بيان الأسرار الجمالية والوظائف الدلالية لفنون البديع التي تلازم الحجاج وتسانده في تجلية المقصود.

منهج البحث: راعت الدراسة في الجانب النظري المنهج الوصفي القائم على التتبع والاستقراء للظواهر المتعلقة بالعنوان، من جانبين، الأول: حجاجية البديع، والثاني: مناظرة السيرافي، وفي الجانب التطبيقي المنهج التحليلي في دراسة البديع وأثره في تحقيق الإقناع بالدلائل القاطعة، وتأثيره في جمهور السامعين.

من نتائج البحث:

١. إن القيم الحجاجية للطباق، والمقابلة، ومراعاة النظير، أسهمت بشكل فاعل في نمو المعاني العقلية من خلال أمرين، أولهما: تحقيق التأثير، والاستمالة، وكسب تأييد المتلقي، ثانيهما: تحقيق الإقناع، وإلزام الحجة، وإزالة اللبس، وهذا لب البلاغة وجوهرها، فكل أسلوب –منهما– بمثابة أداة فنية، وآلة بلاغية، تعملان على توليد طاقات حجاجية أكثر قوة، وأعمق دلالة، وأشد تماسكًا، وأبين جمالًا.

٢. وقف السيرافي –في هذه المناظرة– على دقائق الكلام، حيث الجمع بين الحسن والجودة والإبداع في نسج المعاني وتكوينها، فصاغ الحجج الصارمة، والبراهين القاطعة، والدلائل النيرة وفق أساس علمي عقلي راجح؛ بغية

إيقاظ متّى بن يونس وتصويب ما ادعى من فلسفة ومنطق؛ حتى لا تُطلق الأمور حسب متطلبات التعصب بغير حجة بينة، بل حسب مقتضيات العقل من نظر، وملاحظة، وتأمل، وتعقل.

مقدمة

الحمد لله القائل في محكم التنزيل ﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾ (سورة ص: ٢٠)، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،وبعد:

إن من أبرز مقومات الخطاب الإقناعي الفصاحة في القول، والبراعة في العقل، والرجاحة في الحلم، والاتساع في العلم، والصواب في الحكم، والفهم والإفهام لكل غرض مقصود(١)، وتلك عدّة البليغ في الصدع بحجته في المقامات والأحوال التي تتطلب الإبانة والإفصاح، فيقرر الحقائق، ويثري المفاهيم، ويطور الأفكار، ويفض النزاع، ويحل الخلاف بوسائل اللغة الحية؛ رغبة في إقناع المتلقي والتأثير فيه، فإن "الطريق إلى حقائق التخاطب ما زال مفتوحًا يسلكه كل من اقتنع بأن التخاطب فيه ما ليس في غيره من شعب اللغة، ففيه (التبليغ)، وتبليغه تنشأ فيه المعاني مشتركة بين ذوات مختلفة، وفيه (التدليل)، وتدليله يجعل من كل قول دليلًا على مدلول يطلبه الغير، وفيه (التوجيه)، وتوجيهه يَبُث في الأقوال فيما تستنهض همة الغير للعمل، فيكون كل أصل في اللغة الإنسانية أصلًا (تبليغيًّا تدليليًّا توجيهيًّا)"(٢)، والبلاغيون اهتموا كثيرًا بقضايا التبليغ، والتدليل، والتوجيه؛ حرصًا على أهمية الحجاج ودورها في تحقيق الإقناع ؛ وعليه فالحجاج البلاغي يهدف إلى الإقناع والتبليغ، والتدليل والتوجيه، والتنبيه والتأثير معًا، وتلك روافد أساسية في علم البلاغة لا يقوم إلا بها(٣)، وتتبع هذه الروافد من التفاعل مع مستويات الفهم والإدراك، والذوق. والبيان الجيد "تحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق...، وإن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة، وإن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى به الأعناق، وتزين به المعاني"(٤).

وتبرز أهمية الحجاج في كونه أسلوبًا بلاغيًّا في المقام الأول، يعمد إلى التفكير العقلي في معالجة القضايا، والبرهنة على صحتها، ولهذا النمط من القول الحجاجي خصائص وسمات تتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، تجعل للغة

---

(١) ينظر: البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي)، ص١٧٥.

(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، ط ٢، = (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠م)، ص٢٧.

(٣) "وليس من المعقول -والحال هذا- أن تكون بلاغة أرسطو المنتزعة من أصلاب اللغة اليونانية أصلًا لبلاغة تبحث أسرار المعاني الشرعية في كتاب الله الذي نزل بلسان عربي مبين ... ونحن بدورنا نرفض رفضًا باتًّا هذه الجرأة التي يتقحمها من لا يعلمون هذا الأمر". ينظر: دراسة في البلاغة والشعر، محمد محمد أبو موسى، ط١، (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١١هـ-١٩٩١م)، ص٦٧.

(٤) البيان والتبيين، ص٣٦.

وظيفة حجاجية، وأن هذه الوظيفة مؤشر لها في بنية الأقوال، وفي المعنى، وفي كل الظواهر الصوتية، والصرفية، والتركيبة، والدلالية[١]، والغاية منها "التأثير في المتلقي، ودفعه إلى تبني رأي ما، أو الاستجابة لطلب معين، أو اتخاذ موقف ما من قضية من القضايا، أو تغيير آرائه ومواقفه بشكل عام"[٢]، وهذه المقاصد تتحقق _ حسب مقتضيات السياق_ بطريق الإقناع العقلي، والإيحاء النفسي، والجمال الفني.

فأهمية الدرس البلاغي تكمن في جانبين مهمين، **أولهما:** أن ننظر في آراء أهل العلم حول نظرية الحجاج البلاغي، والترابط بين صحة الاستدلال وحسن البيان في المقامات الأدبية، فلعل وجهًا من الحسن يبين، ولعل غامضًا من فكر ينجلي، وهذا يمثله الجانب النظري من هذه الدراسة. **أما الجانب الثاني** فهو من الأهمية بمكان؛ إذ يتضمن دراسة البلاغة فنًّا عِمَاده التحليل الجيد لنص الأدبي، كمناظرة أبي سعيد السيرافي، فإن تذوق النصوص يُمَكِّنُ من سبر أغوارها، واستخراج مكوناتها؛ كي تنكشف دقائق اللغة وأسرارها ... والجمع بين الجانبين مطلب مهم في الدراسات البلاغية؛ لأنه باب من أبواب تجدد العلم، والمعول عليه في منهج التحليل البلاغي النظر، والتدقيق، والتحليل.

(١) ينظر: اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط١، (الدار البيضاء، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٦م)، ص٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٣.

وقد رغبت في القيام بدراسة علمية لقسم من أقسام البلاغة العربية، إلا وهو البديع وأثره في الحجاج العقلي، وتأثيره في جمهور السامعين، فجاء عنوان البحث: **(القيم الحجاجية للبديع، مناظرة أبي سعيد السيرافي لمتى بن يونس القنائي أنموذجًا)**، والأسباب التي دعت إلى اختيار هذا الموضوع كالآتي:

- ما امتازت به المناظرة من بلاغة أسلوبية جاء البديع ركنًا أصيلًا من أركانها، إذ أكسب النص إتقانًا محكمًا في نسج تراكيبه، وثراء دلاليًّا في غزارة مفرداته، وبراعة بديعة في بلاغته، وطبيعة حجاجية استدلالية واضحة، فقد وصف العلماء هذه المناظرة بأنها: "ترسانة من الأساليب والأدوات يتم افتراضها من البلاغة؛ ولذلك فمن اليسير الحديث عن اندماج الحجاج مع البلاغة في كثير من الأساليب"[٣]، ومن هنا فهي مجال خصب للبحث والدراسة.
- قلة الدراسات البلاغية للمناظرة بشكل عام، فهي من الأنواع الأدبية التي قلّ اهتمام الباحثين بها، على الرغم من أنها تشكل نوعًا أدبيًّا بارزًا في قائمة الأنواع الأدبية[٤].

أهداف البحث: وهي كالآتي:

١. تتبع القيم الحجاجية للبديع في مناظرة أبي سعيد

(٣) التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صابر الحباشة، ط١، (سورية – دمشق، ٢٠٠٨م)، ص٥٠.

(٤) ينظر: المناظرة في الأدب العربي – الإسلامي، حسين الصديق، ط١، (مكتبة لبنان، ٢٠٠٠م)، ص١–٣.

السيرافي، فهي ظاهرة تستوجب التتبع؛ لحسن الإبانة عن المعاني العقلية المرادة في صور أبهى وأزين وآنق وأعجب.

٢. ربط الظاهرة الوظيفية للبديع بمقتضيات الإقناع، فقد يُتوهم أن البديع بوظيفته التحسينية بعيدًا عن المحاججة والإقناع.

٣. بيان الأسرار الجمالية والوظائف الدلالية لفنون البديع التي تلازم الحجاج وتسانده في تجلية المعنى المقصود حسب مقتضيات السياق عند السيرافي.

٤. إيضاح الدور الفعال الذي يحققه البديع في سياقات المناظرة؛ حيث البراعة في نسج الألفاظ، وعمق الأفكار، وسلامة الأساليب، وتلك صنعة تتطلب ماهرًا حذقًا كالسيرافي في صنعته وبيانه.

مشكلة البحث: وتتمثل في بيان الآتي:

- إن كثرة توارد البديع مع حسن الإبانة في مناظرة السيرافي أمر يقتضي التروي في سبك الألفاظ ونظمها؛ لما يحققه من البلاغة والفصاحة في جزالة الألفاظ، وحسن المعاني، فالمعنى يطلبه، ويستدعيه، وينساق إليه.
- الكشف عن الطاقة الحجاجية في أساليب البديع من خلال استقراء مناظرة السيرافي لمتّى بن يونس.
- توظيف الفنون البديعية في بناء المناظرة توظيفًا يحقق قيمتها في البناء النصي؛ مما جعل من فكر أبي سعيد السيرافي فكرًا بلاغيًّا في مناقشة القضايا وإثبات البراهين.

ويتفرع عنها عدة تساؤلات، جاءت على النحو الآتي:

س١: ما مفهوم الحجاج البلاغي؟، وما الروافد التي تؤهل المتكلم لإنتاج خطاب حجاجي بليغ؟.

س٢: هل المناظرة فن عربي أصيل، ما مدى حضورها في الدرس البلاغي بين صحة الاستدلال وحسن البيان؟.

س٣: هل ظهرت عناية السيرافي بالبديع؟، وما أثر ذلك في توجيه المعنى؟، وإلى أي مدى تمكن من توظيفه في عرض الحجج والبراهين؟.

س٤: هل يمكن للمحسنات البديعية أن تعد رافدًا من روافد التبليغ العقلي والتأثير الوجداني معًا؟.

س٥: أيمكن للفنون البديعية إثراء معاني متغازرة داخل البناء التركيبي للمناظرة ، أم أنها فنون مقتصرة على الحلية اللفظية والزخرفة الشكلية؟.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات وثيقة الصلة بالجانب النظري، وهذا أمر لابد من الالتقاء فيه موضوعًا لا نظرًا، فلكل نَظَرُه، فالقارئ لهما يلحظ اختلاف الأسلوب في صياغة المعاني، وعرض الأفكار، وهذه الدراسات تُعد رافدًا مهمًّا لقيام البحث، وهي كالآتي:

الدراسة الأولى: بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، (منشورات ضفاف، بيروت – لبنان، ط١: ١٤٣٤هـ–٢٠١٣م)، وتهدف إلى الكشف عن الآليات الإقناعية التي تنطوي عليها المناظرة، وقد استخدم في معالجة الموضوع المنهج التاريخي، وإثارة المرجعيات الاجتماعية والثقافة من جهة، والتوسل بأدوات التحليلين التداولي والحجاجي من جهة أخرى. وتكونت الدراسة من ثلاثة أبواب، **الباب الأول بعنوان:** الإسهامات النظرية في بلاغة الحجاج، و**الباب الثاني بعنوان:** المناظرة في التراث العربي الإسلامي. و**الباب الثالث بعنوان:** الآليات الإقناعية أو الاشتغال الحجاجي في المناظرة.

والمتضح في هذا الباب أن الاشتغال التطبيقي جاء لثلاث مناظرات من بينها: مناظرة أبي سعيد السيرافي ومتى بين يونس حول النحو والمنطق، بوصفها نموذجًا للمناظرة العلمية المعرفية، وتناول عدة محاور من الجانب التطبيقي، وهي: (البناء الحواري للمناظرة، ومظاهر الاشتغال الحجاجي للاستفهام في المناظرة، والاستعمالات الإقناعية للنفي في المناظرة، والاشتغال الحجاجي للشاهد في المناظرة).

ومما ينبغي التنبيه عليه أن هذه الدراسة لم تقف عند معالجة علم البديع في الجانب التطبيقي للمناظرة؛ وإنما سعت لبيان وظائف الحوار والاستفهام والنفي، وتُفيد في الجانب النظري؛ حيث التأصيل لبلاغة الإقناع وآلياته في المناظرة.

الدراسة الثانية: المناظرة في الأدب العربي – الإسلامي، حسين الصديق، (مكتبة لبنان، ط١، ٢٠٠٠م)، وتضمنت عدة محاور، على النحو الآتي: **الباب الأول** بعنوان: **(تمهيد تاريخي للمناظرة في القرن الرابع الهجري)**، ويضم خمسة فصول هي: الأول: مشكلة التعريفات، والثاني: نقد المصادر، والثالث: المؤلفات في آداب المناظرة، والرابع: الأطر الاجتماعية التاريخية لتطور المناظرة، والخامس: موقف أهل السنة من الكلام والمناظرة. **والباب الثاني** بعنوان: **(أشكال المناظرة ووظائفها الاجتماعية)**، ويضم ثلاثة عشر فصلًا هي: الأول: خطاب اجتماعي وتنافس اجتماعي ثقافي، والثاني: منافسات فكرية، والثالث: حوار بين الحضارات، والرابع: تنافس مهني بين الكتابة والحساب، والخامس: تنافس سياسي ديني، والسادس: أشكال المناظرة، والسابع: إطار المناظرة ومساهمة الحاضرين فيها، والثامن: التقنية الاحتجاجية، والتاسع: البناء الحكائي، والعاشر: البناء الحواري للمناظرة، والحادي عشر: أشكال الاستفهام ووظائفه، والثاني عشر: أشكال ووظائف الاقتباس، والثالث عشر: البنية اللغوية للمناظرات. **والباب الثالث** بعنوان: **(مناظرات من القرن الرابع الهجري)**، ويضم فصلًا واحدًا، عبارة عن مجموعة نصوص للمناظرات التي جرت في القرن الرابع الهجري، واقتصرت الدراسة على المنهج العلمي. وهي رافدٌ مهمٌ من روافد بناء هذه الدراسة، وخصوصًا في جانبها النظري؛ حيث التأصيل لماهية

المناظرة في التراث العربي.

ولا يخفى على المتتبع لدراسة – القيم الحجاجية للبديع مناظرة أبي سعيد السيرافي لمتّى بن يونس القنائي أنموذجًا – أن يلحظ تقاطعًا واضحًا في عناوين بعض الرسائل والأبحاث التي تتفق فقط في العنوان، وتختلف في كيفية المعالجة[١].

خطة البحث:

يتضمن البحث: مقدمة، وتمهيدًا، وثلاثة مباحث، وخاتمة، يتبعها فهرسا المصادر والموضوعات.

المقدمة: وتحتوي على عدة عناصر، هي: أسباب اختيار الموضوع، وأهداف البحث، ومشكلة البحث، وتساؤلاته، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهج البحث.

التمهيد بعنوان: التكوين العلمي للسيرافي، وأثره في الحجاج البلاغي، وفيه:

الأول: الروافد التي تؤهل السيرافي لإنتاج خطاب حجاجي بليغ.

أولا: المعرفة الواسعة بالعربية، وفهمه الدقيق للنحو.

ثانيًا: قوة الحجاج العقلي وامتزاجه بحسن البيان.

ثالثًا: القدرة على الفهم وإيصال المعاني.

رابعًا: البواعث النفسية وأثرها في تحقيق المراد.

الثاني: مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح البلاغي.

أما مباحث البحث، فهي كالآتي:

المبحث الأول بعنوان: المناظرة في الدرس البلاغي بين صحة الاستدلال وحسن البيان.

المبحث الثاني بعنوان: البديع بين الظاهرة الوظيفية ومقتضيات الإقناع.

المبحث الثالث بعنوان: القيم الحجاجية للبديع، وأثرها في الإقناع، وفيه مطلبان:

المطلب الأول بعنوان: الطباق والمقابلة وأثرهما في التوجيه الحجاجي، ويضم عدة قضايا، هي:

القضية الأولى: غياب ركائز الفهم والإفهام في التطبيق العملي للترجمة.

القضية الثانية: الإيغال في تمجيد منطق يونان.

القضية الثالثة: الفهم الخاطئ في تأويل مسائل النحو العربي.

القضية الرابعة: التبصر والإدراك جوهر الفكر

---

(١) دراسة بعنوان: **مناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتّى بن يونس: قراءة في أدب الجدل من منظور الدراسات العربية المعاصرة،** تأليف: رامي جميل سالم، (لا يوجد بيانات للبحث)، وهذه الدراسة لم تتطرق للمناظرة من زاوية بلاغية البتة. ودراسة بعنوان: **الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي**، تأليف: حسين بو بلوطه، (رسالة ماجستير في اللغة العربية تخصص لسانيات الخطاب، الجمهورية الجزائرية، جامعة خضر –باتنة–، إشراف: إسماعيل زردومي، السنة الجامعية: ٢٠٠٩– ٢٠١٠م)، ولم يقف هذه الدراسة عند علمي المعاني والبديع في التحليل التطبيقي.ودراسة بعنوان: **فن المناظرة من منظور تداولي – الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي أنموذجًا–**، تأليف: أسماء بن فلح، (رسالة ماجستير في الآداب واللغة العربية، تخصص علوم اللسان العربي، الجمهورية الجزائرية، جامعة محمد خيضر –بسكرة–، إشراف: صلاح الدين ملاوي: ٢٠١١–٢٠١٠م)، لم تتطرق هذه الدراسة لمناظرة أبي سعيد السيرافي مع أبي بشر متّى بن يونس في جانبها التطبيقي. ودراسة بعنوان: **في التذوق الجمالي لمناظرة أبي سعيد لسيرافي وأبي بشر متّى بن يونس القنائي في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات سنة** ٣٢٦هـ، تأليف: محمد علي أبو حمدة، (دار الجيل، بيروت، مكتبة المحتسب عمان، ط١: ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م)، إو هذه الدراسة خلت تمامًا من خاصية التذوق الفني الجمالي، فمحتواها كان منصبًّا حول الناحية النظرية للملابسات التي أحاطت بنشوء هذه المناظرة

المتأني.

المطلب الثاني بعنوان: مراعاة النظير وأثرها في التوجيه الحجاجي، ويضم عدة روافد، هي:

أولًا: ما يتعلق بالعمليات العقلية.

ثانيًا: ما يتعلق بالموضوعات.

ثالثًا: ما يتعلق بالمدركات الحسية.

رابعًا: ما يتعلق بالأمم واللغات.

منهج البحث:

راعت الدراسة في الجانب النظري المنهج الوصفي القائم على التتبع والاستقراء للظواهر المتعلقة بالعنوان، من جانبين، الأول: حجاجية البديع، والثاني: مناظرة السيرافي، وفي الجانب التطبيقي المنهج التحليلي في دراسة البديع وأثره في تحقيق الإقناع بالدلائل القاطعة، وتأثيره في جمهور السامعين.

والحمد لله رب العالمين.

التمهيد:

التكوين العلمي للسيرافي وأثره في الحجاج البلاغي

إن من أبرز العلوم التي تميز بها السيرافي[1] علم العربية؛ إذ أسهم في تكوينه العلمي وأكسبه علومًا متنوعة: نحوية، ولغوية، وقرآنية، وفقهية، وشعرية، معارف متجددة بعلم الحساب، والأنساب، والبلاغة، والجدل، والحجاج العقلي، فهذه مجتمعة تدل على توسعه في معرفة العربية ووجوه استعمالاتها، والعلم بخفاياها ودقائقها، وإلى جانب تمكنه من المعرفة بعلم الكلام والمنطق، فاتصاله بالإمام (محمد بن عمر الصيمري المتكلم) أكسبه معرفة هائلة بالمنطق، ومذهب الاعتزال، وهذا الثراء الفكري والعلمي جعله من أعظم علماء المناظرة العربية في الدفاع عن النحو العربي، وإبطال ادعاء متّى بن يونس القنائي[2]، في قوله: إن النحو شيء من

---

(١) هو: الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي النحوي، أصله من (سيراف) من بلاد فارس، إمام كبير الشأن في العربية، رأس في نحو البصريين، تصدر لإقراء القراءات، واللغة، والفقه، والفرائض، والكلام، والشعر، والعروض، والقواعد، والحساب، لحق بالزجاج والسراج وأخذ عنهما، قرأ على أبي بكر بن مجاهد (القرآن)، وعلى أبي بكر بن دريد (اللغة)، وعلى أبي بكر بن السراج (النحو)، وعلى أبي بكر المبرمان (الحسان)، توفي سنة ٨٩٣هـ. ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٠٦هـ-١٩٨٢م)، ٣٤٩/١. تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم، أبو المحاسن الفضل بن محمد بن مسعر التنوخي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، (القاهرة: =

= هجر للطباعة والنشر، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م)، ٢٨/٢. الأعلام، خير الدين محمود بن علي الزركلي الدمشقي، ط١٥، (دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م)، ١٩٦/٢.

(٢) هو: أبو بشر متى بن يونس، أو يونان القنائى، نسبة إلى (دير قنا)، مترجم وفيلسوف، درس المنطق على يد أبي نصر الفارابي، وقرأه على أبي إسحاق إبراهيم القويري المنطقي، وانتهت إليه رئاسة المنطق في عصره، وكان يقرأ الناس عليه فن المنطق، فقد نقل بعض علماء المنطق: "ما أرى أبا نصر الفارابي أخذ طريق تفهيم المعاني الجزلة بالألفاظ السهلة إلا من أبي بشر، أجاد اليونانية، والسريانية، والعربية"، ترجم كتاب (فن الشعر) لأرسطو طاليس، وكتاب (البرهان) لإسحاق بن حنين، وألف (المقاييس الشرطية)، من أشهر أساتذته: أبو يحيى المروزي، ومن أشهر تلاميذه: أبو زكريا يحيى بن عدي المنطقي، توفي ببغداد سنة ٣٢٨هـ ... ومن خلال ما تناقله العلماء حول متّى في نقله لكتاب (فن الشعر) وترجمته من السريانية إلى العربية: يتضح أن قراءة هذه الترجمة الحرفية السيئة تدلل على أن مترجمها متّى بن يونس لم يكن على أدنى معرفة بمضمون كتاب (فن الشعر)، كما لم يكن يحسن استخدام اللغة العربية، وإنما ينقل إليها بلا علم صحيح ... فقد اتخذ من الفصحى أساسًا لترجمته، إلا أن عباراته جاءت هزيلة بنائيًّا، وسقيمة نحويًّا، ومحشوة بكلمات محرفة ... فلم يكن ملمًّا باليونانية؛ لذا ترجم الكتاب عن لغة وسيطة هي اللغة السريانية، رغم أنه شُغل بالمنطق وتفسيره كثيرًا. ينظر: الفهرست، أبو الفرج محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم، تحقيق: إبراهيم رمضان، ط٢، (بيروت – لبنان: دار المعرفة، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م)، ص٣٢٣. كتاب أرسطو =

المنطق، والمنطق شيء آخر، باعتبار أن "المنطقي لا حاجة له بالنحو، والنحو شديد الحاجة إلى المنطق، والمنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ، فإن مر المنطقي باللفظ فبالعرض، وإن عثر النحوي بالمعنى فبالعرض، والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضح من المعنى"(١).

ومما زاد في التكوين العلمي عند السيرفي أنه صاحب تصانيف كثيرة، منها: شرح كتاب سيبويه، ولم يشرح هذا الكتاب أحد أحسن منه، ولو لم يكن له غيره لكفاه ذلك فضلًا –كما قال العلماء–، ومن مصنفاته –أيضًا–: (المدخل إلى كتاب سيبويه)، و(شواهد كتاب سيبويه)، و(ألفات الوصل والقطع)، و(أخبار النحويين البصريين)، و(الوقف والابتداء)، و(صنعة الشعر والبلاغة)، و(شرح مقصورة ابن دريد)، و(الإقناع في النحو)، و(جزيرة العرب)، و(أسماء جبال تهامة ومكانها)(٢).

ولمكانة السيرافي العلمية أهمية بالغة الأثر، فقد روى عن جماعة من العلماء، منهم: أبو بكر بن دريد، وابن زياد النيسابوري، وأبو عبيد بن حربويه الفقيه، ومحمد الصيمري المتكلم، وأبو بكر محمد الأزهري الخزاعي، وابن السراج، والمبرمان بن إسماعيل، وابن مجاهد التميمي البغدادي، وروى عنه وتتلمذ عليه جماعة من العلماء، أبرزهم: علي بن أيوب القمي، ومحمد بن عبد الواحد بن رزمة، وأبو حيان التوحيدي، وطائفة كثيرة(٣)، فهو مقصد الأمراء والعظماء من مختلف الأمصار، يبعثون إليه بما يُشكل عليهم من مسائل في علوم عدة(٤).

ومن أهم وأبلغ القضايا التي ناقشها السيرافي قضية (الدفاع عن النحو العربي)، في مناظرته لمتّى بن يونس، وتلك مدونة عملية من أبلغ المدونات في القرن الرابع الهجري، وهي خطابٌ نفعيٌّ، وأنموذجٌ فريدٌ، وجوهرة كريمة في عِقْليّ الحياة الثقافية الإسلامية؛ لأنها جاءت في سياق حضاري تاريخي، لها خصائص معينة، وأحوال دالة، وقرائن من نوع خاص(٥)، والمتأمل في أحوال سياقها وسمات نسجها يُدرك أن الأساليب البلاغية تؤدي وظائف إقناعية

=

فن الشعر، قام بالترجمة العربية وتقديمها والتعليق عليها: إبراهيم حمادة، (مكتبة الانجلو المصرية)، ص٣٩.

(١) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة الطعيمي، (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٣٢هـ–٢٠١١م)، ٩٣/١.

(٢) ينظر: طبقات النحويين واللغويين، أبو بكر، محمد بن الحسن بن عبيد الله الزبيدي الإشبيلي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، (دار المعارف)، ص١١٩.

(٣) ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مجموعة من المحققين باشراف: شعيب الأرناؤوط، ط٣، (مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م)، ٢٤٩/١٦.

(٤) يذكر العلماء أنه: قَدِمَ إلى حلب فجمع سيف الدولة ابن حمدان بينه وبين أبي علي الفارسي، وجرت بينهما مسائل، كانت سبب وضع أبي علي الفارسي المسائل الحلبية ... ينظر: بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين، عمر بن أحمد هبة الله العقيلي، تحقيق: سهيل زكار، (دار الفكر)، ٢٤٤/٥.

(٥) التذوق الجمالي لمناظرة أبي سعيد لسيرافي وأبي بشر متّى بن يونس القنائي في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات سنة ٣٢٦هـ، تأليف: محمد علي أبو حمدة، (دار الجيل، بيروت، مكتبة المحتسب عمان، ط١: ١٤٠٤هـ–١٩٨٤م)،ص: ٥٧.

استدلالية، "تتوفر على خاصية التحول لأداء أغراض تواصلية، ولإنجاز مقاصد حجاجية، ولإفادة أبعاد تداولية"(١)، ومثل هذا يتحقق في طرائق "الفصحاء البلغاء من الخطباء والشعراء، الذين أُختصوا من بين جميع الأنام **بالألسنة الحداد، واللّدد في الخصام، مع اللّب والنّهى، وأصالة الرّأي**"(٢)، وتلك طرائق تُمكّن المتكلم من الإبانة في مجال قرع الحجج وإسكات الخصم ... ومن هنا، فالتكوين العلمي والنفسي عند الفصحاء –أمثال: السيرافي– ذو أثر بالغ في أصالة الحجج وقوتها وبلاغتها، ولبيان ذلك نقف عند بعض الإشارات المهمة التي يتطلبها البحث، وهي:

الأول: الروافد التي تؤهل السيرافي لإنتاج خطاب حجاجي بليغ:

أولا: المعرفة الواسعة بالعربية، وفهمه الدقيق للنحو: فالسيرافي ذو حصيلة معرفية علمية، تكشف ثقافاته المتنوعة في ميادين العلم والمعرفة، وتلك إمكانات عالية تؤهله لإنتاج نص له قيمة في صناعة العلم وبناء الأفكار، وعماد ذلك امتزاج المعارف المتصلة بالنحو، واللغة، والقرآن، والفقه، والفرائض، والشعر، والأنساب، والحساب، بالمعارف المتصلة بالفلسفة وعلم المنطق، فالامتزاج والتفاعل أنتج مناظرة (إقناعية، إبداعية، فنية)، تهدف إلى تأصيل دور العقل في نشر الحقائق بطريقة تجمع بين الإقناع والإمتاع، فالسيرافي كما ذكر أهل العلم "أنه أجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل في كلّ باب، وأخرج من كلّ طريق، وألزم للجادّة الوسطى في الدّين والخلق، وأروى في الحديث، وأقضى في الأحكام، وأفقه في الفتوى، وأحضر بركة على المختلفة، وأظهر أثرًا في المقتبسة"(٣).

فينبغي على المتكلم تقديم جملة من الأدلة والبراهين العقلية المنطقية المؤدية إلى نتائج عقلية واضحة سليمة، وهذا لا يتحقق إلا بامتزاج جملة العناصر العلمية، والثقافية، والنفسية المؤهلة لبلوغ المقاصد والغايات، فالتأمل والتفكّر من أجل روافد الاحتجاج، وهذا ما ظهر في مناظرة السيرافي، فقد بنى خطابه الحجاجي وفق أدوات خاصة من البراهين العلمية؛ كي يؤسس لحقيقة مهمة تختص بالنحو العربي تجاه علم المنطق، ومن هنا فالمناظرة عبارة عن حجاج حواري اعتمد على حجج قوية نابعة من العقل الاستدلالي.

ثانيًا: قوة الحجاج العقلي وامتزاجه بحسن البيان: إن "من تمام آلة البلاغة: معرفة المقامات، وما يصلح في كل واحد منها من الكلام"(٤)، فالمقام عنصر فعال في تشكيل النص الحجاجي وإنجاحه؛ لذا قدم السيرافي في مناظرته جملة من الاحتجاجات التي تنم عن وعي خاص بحركة الحضارة المواكبة

(١) التداولية والحجاج مداخل ونصوص، ص٥٠.
(٢) تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية)، ص٢٣.
(٣) الإمتاع والمؤانسة، ١٠١/١.
(٤) الصناعتين، ص٢١.

لظهور الفلسفة والمنطق، وتعامل مع متّى بن يونس من منظور علمي فكري، والتزم بأسس التأثير العلمي القائم على قواعد منطقية علمية، من ذلك قوله في سياق المحاجة، والإفحام، والإسكات؛ إذ يقول[١]:

- فإنا إذا فهمنا مرادك كان كلامنا معك في قبول صوابه وردِ خطئه على سنن مَرضيّ وطريقة معروفة.
- أخطأت...ودع هذا...موهت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التمويه... فامسح وجهك بالسلوة عن شيء لا يستطاع... هذا باب أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفله... فبلح وجنح وغص بريقه... إذا حضرت الحلقة استفدت، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبيس، مع من عادته التموية والتشبيه، والجماعة تعلم أنك أخطأت.
- فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف أو يحلحله أو يؤثر فيه؟ هيهات هذا محال... لعلمت إنك غنيّ عن معاني يونان كما أنك غنيّ عن لغة يونان...أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة
- جوابك صحيح وإن كنت غافلا عن وجه صحتها... جوابك غير صحيح وإن كنت ذاهلا عن وجه بطلانها.
- أنت إذا ليست تدعونا إلى علم المنطق؛ وإنما تدعوإلى تعلم اللغة اليونانية، وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها؟ وقد عفت منذ زمان طويل، وباد أهلها.

فمثل هذه السياقات تجعل السيرافي "شديد الصلة بالمنطق والمباحث الفلسفية، وهي صلة سلّحته بقوة الحجة، وبراعة البيان، وسلامة البرهان؛ مما أضرم فيه نار الجدل، وجعله يظفر بأبي بشر متّى بن يونس القنائي"[٢]، كما أن في هذه السياقات دلائل على صفات التكوين العقلي للسيرافي، فهو سريع البديهة، فاحص النظر، حاضر الجواب، تواقٌ للدفاع عن العربية، جمع بين سعة العلم وحدة الذكاء.

ومن الملاحظ، أن السيرافي كثيرًا ما يلجأ إلى الاحتجاج العقلي، والتفكير المنطقي، والمعاني البلاغية في استناده على البرهنة على صحة المقدمات؛ بغية الوصول إلى صحة الاستنتاجات_لتتحقق غاياته ومقاصده_ يقول: "ودع هذا، إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم التّرك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكره رفضوه؟"[٣]،

(١) ينظر: الامتاع والمؤانسة١/ ٩٠،٩١،٩٤،٩٥،٩٦،٩٨.

(٢) المناظرة في الأدب العربي – الإسلامي،ص: ١٦٦.
(٣) ينظر: الامتاع والمؤانسة١/٩١.

وفي سياق أخر يقول أيضًا: "فمن أين يجب أن تثق بشيء ترجم لك على هذا الوصف؟ بل أنت إلى تعرّف اللغة العربيّة أحوج منك إلى تعرّف المعاني اليونانيّة، على أنّ المعاني لا تكون يونانيّة ولا هنديّة، كما أنّ اللغات تكون فارسيّة وعربيّة وتركيّة، ومع هذا فإنّك تزعم أن المعاني حاصلة بالعقل والفحص والفكر، فلم يبق إلّا أحكام اللّغة، فلم تزري على العربيّة وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها، مع جهلك بحقيقتها؟"[١].

وبهذا فالسيرافي استعمل اللغة عن وعي وقصد، ووظف كفاءاته العقلية في سياق الدفاع عن النحو العربي؛ لذا امتازت المناظرة ببراعة البيان، وصحة الاستدلال، وهذا أمرٌ لا يتأتى إلا بعد "مراعاة مقتضى الحال".

ثالثًا: القدرة على الفهم وإيصال المعاني: إن المتكلم البليغ يحتاج إلى الكدّ والمجاهدة والمعاودة من أجل القدرة على التواصل مع المتلقي؛ لذا فالحاجة ماسة إلى اختيار اللفظ الشريف، والمعنى البديع، مع تجنب الغموض والتعقيد[٢]، وهذا ركيزة أساسية تمثلت في بلاغة السيرافي وهو يناظر متّى.

رابعًا: البواعث النفسية وأثرها في تحقيق المراد: إن الباعث لهذه المناظرة باعث نفسي، تمثل في حب السيرافي للنحو العربي، واستجابته لطلب الوزير، مع ما يعضدها من عبارات الإجلال والتوقير الباعثة للارتياح والطمأنينة، من ذلك قول ابن الفرات لأبي سعيد:"أنت لها أبا سعيد، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك"[٣]، والغاية الأساسية الجوهرية من كل جنس من أجناس القول البليغ تتمثل في "الفعل في الآخرين والتأثير فيهم؛ ولهذا يقترن إنتاج الخطاب وتكوينه بالحالات النفسية التي يغلب عليها الهدوء والطمأنينة، ويحكمها الوعي واليقظة، وتخلو من كل توتر أو قلق"[٤].

ومن عبارات التشجيع التي وجهها ابن الفرات للسيرافي قوله: "ما بعد هذا البيان مزيد، ولقد جلّ علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الإسفار... سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى، فإن هذا كلّما توالى عليه بان انقطاعه، وانخفض ارتفاعه، في المنطق الّذي ينصره، والحقّ الذي لا يبصره... عين الله عليك أيّها الشيخ، فقد ندّيت أكبادا وأقررت عيونا، وبيّضت وجوها، وحكت طرازا لا يبليه الزمان، ولا يتطرّق إليه الحدثان"[٥].

الثاني: مفهوم الحجاج في اللغة والاصطلاح البلاغي:

إن لكل خطاب مقاصد والغايات التي يسعى المتكلم إلى إذاعتها بين السامعين بفصاحة وبلاغة؛

---

(١) ينظر: المرجع السابق،١/ ٩٤.
(٢) ينظر: بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، حسن المودن، ط١، (كنوز المعرفة، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م)، ص٥٠
(٣) ينظر: الامتاع والمؤانسة١/٩٠.
(٤) ينظر: بلاغة الخطاب الأقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص٦٦.
(٥) ينظر: الامتاع والمؤانسة١/ ٩٦،٩٧،١٠١.

لتكون أكثر نفعًا في تحقيق الإقناع؛ حيث الوصول إلى نتائج منطقية، فالخطاب الحجاجي خطاب بلاغي في المقام الأول؛ لأن مدار البلاغة وعمادها يرتكز على "استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها"[١]؛ وعليه فالعملية الحجاجية عملية تفاعلية، ينتج من خلال تفاعلها تغيير معتقد المتلقي وفق ما يقتضه الحال؛ قصد الاستمالة والتأثير، والحجاج يكون بجميع وسائل البيان شعرًا ونثرًا، فإن المعاني –الشعرية والخطابية– تخرج في معاريض مختلفة، وتفاصيل متنوعة [٢].

وبالنظر في المعاجم اللغوية يتضح أن مادة (ح – ج – ج) بمعنى: البرهان والدليل، وقيل: الحجة: ما دُوفع به الخصم، والتحاج: أي: التخاصم[٣]، "ويمكن أن تكون الحجة مشتقة من (المَحَجَّة)؛ لأنها تقصد أو بها يقصد الحق المطلوب، يقال: حاججت فلانًا فحججته، أي: غلبته بالحجج التي أدليتُ بها[٤]، وبهذا فلفظ الحجاج يشير إلى التحاج والتخاصم بالأدلة القاطعة والبراهين الواضحة؛ بغية إظهار الحجة على من ادعى. ويمكن جعل (الحجاج) مرادفًا لـ(الجدل)، يقول الأزهري: "رجل مِحْجاجٌ، أي: جَدِلٌ"[٥]، ومهما يكن من أمر فإن (الحجاج، والجدل) يكثر ورودهما مترادفين في اصطلاح القدماء، فقد استخدموا ألفاظًا منها: (المحاجة، الحجاج، الاحتجاج) على أنها مرادفة للفظ الجدل، وتسد مسده في مقارعة الحجة بالحجة[٦].

والحجاج "أوسع من الجدل، فكل جدل حجاج، وليس كل حجاج جدلًا، وهو القاسم المشترك بين الجدل والخطابة، من حيث إن الجدل والخطابة قوتان لإنتاج الحجج، من هنا فالحجاج سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة، أو هي الطريقة التي تطرح بها الأدلة، ومعلوم أن هذه الأدلة يمكن أن تكون استقراء أو قياسًا، ومجال ذلك الجدل أو

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، (بيروت – لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ)، ص٢٠٥.

(٢) ينظر: سرّ الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي الحلبي، صححه وعلق عليه: عبد المتعال الصعيدي، (مصر: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ١٣٧٣هـ–١٩٥٣م)، ص٢١١، بتصرف يسير.
لقد " ظهرت عناية القدماء بأهمية الفهم والإفهام في خطاباتهم، إذ أقاموا أسواقًا يرتحلون إليها فيتناشدون، ويتحاجّون، ويتحادّون، ويقدمون (قس بن ساعدة الإيادي) في محافل الخطباء، و(النابغة الذبياني) في مجالس النقاد؛ لما اشتهرا به من براعة في البيان، وقوة في البرهان، ولا فخر إلا بالبلاغة، فبواسطتها يعرف المتكلم أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا". البيان والتبيين، ص١١٣. الإمتاع والمؤانسة، ٧٧/١.

(٣) ينظر: لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن منظور، ط٣، (بيروت – لبنان: دار صادر، ١٤١٤هـ–١٩٩٤م)، مادة (حجج)، ٢٢٧/٢؛ مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، =

= تحقيق: عبد السلام هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ–١٩٧٩م)، مادة (حجّ)، ٣٠/٢.

(٤) ينظر: لسان العرب، ٢٢٨/٢؛ مقاييس اللغة، ٣٠/٢.

(٥) ينظر: لسان العرب، ٢٢٨/٢.

(٦) ينظر: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صوله، ط٢، (بيروت ـ لبنان: دار الفارابي، ٢٠٠٧م)، ص١٠.

الخطابة ...، معنى هذا أنه يوجد حجاجان: حجاج جدلي، وحجاج خطابي، فالحجاج الجدلي مداره مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد، ويسمى في التراث العربي بعلم النظر والاستدلال والمناظرات، وأما الحجاج الخطابي هو: حجاج موجه إلى جمهور ذي أوضاع خاصة في مقامات خاصة، وهو هنا ليس لغاية التأثير العقلي النظري، وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي، وإثارة المشاعر والانفعالات، وإرضاء الجمهور واستمالته"(١)، ومما لا ريب فيه أن (كتب الجدل) كانت نتيجة لانتشار المناظرات وازدهارها(٢).

أما من الناحية الاصطلاحية فإن الحجاج يأتي بعدة مسميات، من بينها: (الاحتجاج النظري)(٣)، و(إلجام الخصم بالحجة)(٤)، و(المذهب الكلامي)(٥)، و"حقيقة هذا النوع من احتجاج المتكلم على خصمه بحجة تقطع عناده، وتوجب له الاعتراف بما ادعاه المتكلم، وإبطال ما أورده الخصم"(٦)،

وبالنظر في أسفار البلاغيين نجدهم يذكرون (الحجة)، و(الحجاج)، و(الاحتجاج) في سياق الحديث عن البلاغة والفصاحة والبيان، ولعل من أبرزهم الجاحظ (٢٥٥هـ) في البيان والتبيين، إذ أشار إلى أبرز مقومات الاحتجاج البلاغي العقلي المتمثلة في "شدة العارضة، وقوة المنة، وظهور الحجة، وثبات الجنان، وكثرة الريق، والعلو على الخصم"(٧)، فإن جماع البلاغة "البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة"(٨)، وهذا مما يوافق جوهر الحجاج، ويسعى لتأكيد غايته من خلال وظيفة الفهم والإفهام التي برزت بوضوح في تعريفة للبيان، إذ يقول: "... أن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"(٩)، فتحقق الفهم يؤدي إلى جودة الإفهام، وجودة الإفهام مطلب أساسي لقوة الإقناع؛ حيث شدة قمع المعاند والتأثير فيه.

وفي سياق آخر جعل (الاحتجاج) وجهًا من وجوه البلاغة، إذ يقول: "البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، **ومنها ما يكون في الاحتجاج**، ومنها ما يكون جوابًا ..."(١٠)، وبهذا فالبيان عند الجاحظ يتمثل في وظيفتين هما: الوظيفة الخطابية وما

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ١٧،١٨.
(٢) ينظر: المناظرات في الأدب العربي – الإسلامي، ص٩٢.
(٣) ينظر: شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (بيروت – لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر)، ص١٢٣.
(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، (بيروت – لبنان: مكتبة إحياء التراث العربية، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م)، ٤٦٨/٣.
(٥) ينظر: البديع في البديع، أبو العباس عبد الله بن محمد بن المعتز، ط١، (دار الجيل، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م)، ص٥٣.
(٦) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، ط١، (بيروت – لبنان: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م)، ص٥٧ وما بعدها.

(٧) البيان والتبيين، ص١٥٧.
(٨) المرجع السابق، ص٩٢.
(٩) المرجع السابق، ص١١.
(١٠) المرجع السابق، ص١١٤.

يتصل بها من: إلقاء، وإقناع، واحتجاج، ومناظرة، ومنازعة، ووظيفة الفهم والإفهام المستخلصة من مفهوم البيان؛ إذ تنازعه وظيفتان: إفهامية، وإقناعية[١].

ويذكر أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) في كتابه الصناعتين أن المتكلم المدافع عن الإعجاز ينبغي أن يتصف بـ"حسن مناظرته، وتمام آلته في مجادلته، وشدّة شكيمته في حجاجه"[٢]، ثم يشير إلى أعلى مراتب البلاغة قائلًا: "فأعلى رتب البلاغة أن يحتجّ للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود ..."[٣]؛ وعليه فالبلاغة "كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكّنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة، ومعرض حسن"[٤].

وبهذا فالحجاج البلاغي ذو وظيفة علمية عقلية تتمركز حول إثبات الحقائق وتقريرها، ووظيفة فنية جمالية تتمركز حول جمال النسج، وحسن التحبير، ويخضع في كلا الوظيفتين لمراعاة مقامات السامعين، وهذا ما نجده عند عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في كتابه دلائل الإعجاز، إذ أبان من خلال دفاعه عن إعجاز القرآن، وإثبات نظرية النظم، أن الحجاج ممارسة عقلية تأثيرية تفاعلية، فأي تفاعل لفظي في سياقات الكلام يثري المفاهيم، ويطور المعارف، وينمي العلوم، فهو حجاج، يقول: "وغاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها، أو يزيد من درجة ذلك الإذعان، فأنجح الحجاج ما وُفق في جعل حِدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين"[٥]، فالإقناع مطلب أساسي، وتمكين الكلام في نفس لا يكون إلا بحجج مقنعة.

وبالنظر فيما قدمه علماء العرب المحدثون من دراسات حول الحجاج من منطلق فلسفي، أو بلاغي، أو لغوي، نجد كثيرًا من الدراسات التي اهتمت بهذا الجانب[٦]، ومن أهم ما ورد في بيان مفهوم الحجاج من منظور اصطلاحي، أنه: "تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب ... فالحجاج مؤسس على بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب"[٧]، وهو أيضًا: "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن

---

(١) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، عبد اللطيف عادل، ط١، (بيروت – لبنان: منشورات ضفاف، ١٤٣٤هـ-٢٠١٤م)، ص٦٤.
(٢) الصناعتين، ص١.
(٣) المرجع السابق، ص٥٣.
(٤) المرجع السابق، ص١٠.

(٥) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص٢٧.
(٦) هناك مجموعة من الدراسات تناولت موضوع الحجاج بشكل ملحوظ، ومن بينها: كتاب: في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، عبد الله صوله، (الشركة التونسية للنشر، ط١، ٢٠١١م)، وكتاب: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية (عبد الله صوله)، وكتاب: اللغة والحجاج (إبراهيم العزاوي)، وكتاب: بلاغة الإقناع في المناظرة (عبد اللطيف عادل)، وكتاب: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، (طه عبد الرحمن)، وكتاب: التداولية والحجاج مداخل ونصوص (صبر الحباشة).
(٧) اللغة والحجاج، ص١٦، ١٧.

تزيد في درجة ذلك التسليم"[١].

المبحث الأول:

المناظرة في الدرس البلاغي بين صحة الاستدلال وحسن البيان

لقد تشكلت المناظرة بوصفها خطابًا حجاجيًّا في التراث العربي منذ القدم؛ إذ أُقيمت مجالس للمحاورة والمباحثة، والمخاطبة والمناقشة؛ بغية تحصيل المعارف والعلوم وتبليغهما، فظهرت صنوف من الخطابات تقر بالمناظرة منهجًا فكريًّا، كـ(خطاب التهافت)، و(خطاب التعارض)، و(خطاب الرد)، و(خطاب النقض)، وما إليها، بل حيث وُجِدت مذاهب ومدارس واتجاهات في مجال من مجالات المعرفة الإسلامية، كانت المناظرة طريقة التعامل بينهما، وهذا شأن النحو في (باب القياس) بين أهل العلم من مجالات مختلفة كمناظرة السيرافي النحوي ومتّى بن يونس الفيلسوف[٢].

ولو تأملنا مادة (ن – ظ – ر) في مدلولها اللغوي في المعاجم العربية لتبيّن أنها تدل دلالة بينة على "تأمل الشيء ومعاينته"[٣]، فـ"التَّناظُرُ بمعنى التراوض في الأمر، ونَظِيرُك، أي: الذي يراوضك وتناظِره، وناظَرَه من المناظرة، والنَّظِيرُ، أي: المِثْلُ في كل شيء ... ويقال: ناظرت فلانًا، أي: صرت نظيرًا له في المخاطبة، وناظرت فلانًا بفلان، أي: جعلته نظيرًا له"[٤]، والنظر –هنا– معنوي يتطلب استحضار العقل؛ للتمعن والتفحص في معاينة المعقولات لإدراك جوهرها، وهذا المعنى يقود إلى المعنى الاصطلاحي للمناظرة، فهي: "النظر بالبصيرة من الجانبين بالنسبة بين الشيئين؛ إظهارًا للصواب"[٥]، وبهذا التعريف تحقق أن المناظرة مباحثة عقلية فكرية تتم في مهاد خلافي، متوخاها إظهار الصواب[٦]، ومن تعريفاتها – أيضًا– أنها: "ممارسة حوارية، الغرض منها الاشتراك في الوصول إلى الحق ...، فكل خطاب استدلالي يقوم على المقابلة والمفاعلة والمواجهة يسمى مناظرة"[٧]، فالقول بهذا يجعل المناظرة أحد روافد الخطاب الحجاجي؛ لقدرتها على تحقق الإقناع.

والمناظرة شكل من أشكال الخطاب الاحتجاجي، بل هي نوع أدبي له مكانة مهمة بين الفنون الأدبية؛ إذ كانت "تُستخدم للدلالة على نص صغير أو كبير يعرض حوارًا بين شخصين وأحيانًا أكثر، كل من الاثنين يخالف الآخر في الموضوع المطروح للمناقشة، ويتبنى فرضية تخالف فرضية الخصم، ويحاول دعمها بالحجج والبراهين، وإدحاض فرضية الآخر وأدلته"[٨].

ومن التعريفات السابقة للمناظرة يتضح أن[٩]:

---

(١) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ص٢٧؛ في نظرية الحجاج –دراسات وتطبيقات–، ص٧٣.
(٢) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٦٩.
(٣) مقاييس اللغة، مادة (ن – ط – ر)، ٤٤٤/٥.
(٤) لسان العرب، مادة (ن – ظ – ر)، ٢١٩/٥.
(٥) التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني، ط١، (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م)، ص٢٣٢.
(٦) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، ص١٣٠.
(٧) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٢٧، ٨١.
(٨) المناظرة في الأدب العربي – الإسلامي، حسين الصديق، ص٦٣.
(٩) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس –مشروع قراءة–، حمادي صمود، ط٣، (دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠١٠م)، ص١٣، ٥١، ١٦٠؛ في أصول الحوار =

- المناظرة صفة حجاجية قوية ناجمة عن المواجهة الخطابية المتمثلة في القبول والاعتراض، والاستدلال والجواب.
- المناظرة ممارسة حوارية عمادها التقابل والتحاور بين متخاطبين يشتركان في صنع المعرفة عبر مسار حجاجي.
- خاصية (الاختلاف، والتعارض، والمواجهة، والاستدلال، والإقناع) من أهم ركائز تكوين المناظرة.
- تُعد المناظرة وسيلة من وسائل تنمية المعرفة الصحيحة وممارسة العقل السليم؛ لذا تستوجب النظر العقلي في فحص المعارف واستنباطها.

وللعلماء في بيان ماهيتها تعريفات شتى، فذكروا أصول منهجها، وأخلاقياتها وتداولاتها، وأركانها وشروطها، وآدابها وظائفها، وعوامل نشوئها وتطورها، وغيرها مما تؤول إليه في جانبها النظري[١]، فقد "شهدت انتشارًا واسعًا أثناء القرون الأربعة الأولى للإسلام، وكان الفضل في هذا الانتشار يعود بالدرجة الأولى إلى رجال علم الكلام، باعتبار المناظرة أداتهم المفضلة في عرض آرائهم والدفاع عنها ...، ومع هذا فإن المناظرة عمومًا ليست وقفًا على هذا العلم، فقد اهتمت بموضوعات ثقافية أخرى أفرزتها الحضارة خلال نموها"[٢]، ومما يؤكد هذا أن المناظرة سلكت طريقًا في التعامل بين أهل العلم من قطاعات مختلفة[٣]، كالمناظرة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر بن متّى بن يونس القنائي في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات، في الليلة الثامنة سنة ٣٢٦هـ، بحضرة جماعة من الأعلام، فكان موضوعها التفريق بين علم المنطق اليوناني وعلم النحو العربي.

والمناظرة فن عربي أصيل، ورافد من روافد البيان في الدرس البلاغي، فكل ما به يتحقق التبليغ –تبليغ المراد إلى السامعين، والإقناع في عرض الحجج، والتأثير في استمالة القلوب وميل الأعناق– فهو بلاغة وإبانة[٤]، والذي يقوي المعنى، أن البيان عند البلاغيين يتصل اتصالًا مباشرًا بآليات فن المناظرات المتمثل في النصوص الحوارية التفاعلية التشاركية، من خطب ومقامات جمعت بين صحة الاستدلال وحسن البيان؛ لكونهما شرطين جامعين لأبرز شروط إنتاج الخطاب العربي –البيان وطلاقة اللسان، البيان وحسن اختيار الألفاظ، البيان وكشف

= وتجديد علم الكلام، ص٢١، ٤٧، ٧٠؛ بلاغة الإقناع في المناظرة، ص١٣١، ١٣٧.

(١) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٦٨–٩٠؛ المناظرة في الأدب العربي – الإسلامي، ص٧٥؛ بلاغة الإقناع في المناظرة، ص١٢٥–١٧٥.

(٢) المناظرة في الأدب العربي – الإسلامي، حسين الصديق، ص١٤٠

(٣) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٦٩.

(٤) ينظر: بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، محمد عابد الجابري، ط٩، (مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩م)، ص١٤، بتصرف.

المعنى–[١]، "وإذا كان البيان يقتضي الاهتمام بالمعنى قبل كل شيء، فإن البلاغيون يذهبون إلى حسن البيان في إخراج المعاني، والاهتمام بالألفاظ؛ بحيث لا تتضمن غلوًّا ولا إفراطًا، بل حُسنًا واعتدالًا"[٢].

ومن هنا، فإن حسن البيان في إخراج المعاني والاهتمام بالألفاظ أمر يتعلق بقضية (مقتضى الحال)، ولعل من أبرز النماذج الكاشفة له صحيفة بشر بن المعتمد (٢١٠هـ)، إذ يقول فيها: "والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصيّ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام"[٣]، فموضوع صحيفة بشر تعليم فتيانه فن الخطابة، فهو على وعي ودراية بدورها في حياة العربي بصفة خاصة؛ إذ إن لها شأنًا عظيمًا؛ نظرًا لارتباطها بتحقيق غايات ومقاصد نفعية، ويمكن أن نعدّها بيانًا يحدّد قوانين تعليم الخطابة؛ ولهذا فالخطابة مقوم أساسي من مقومات فن المناظرات، والوظيفة الخطابية برزت في مواطن عدة كنوع من أنواع الكلام، والخطيب كنموذج للمتكلم[٤].

ومن هنا، فالاهتمام بأبعاد القول الخطابي في مجالات التحاور والتناظر يعضد من اهتمام العرب ببلاغة الإقناع في نشر الدعوة، أو تركيز السلطة، أو الانتصار للمذهب، وهذا جزء لا يتجزء من قضية (إفهام السامع وإقناعه[٥]، وقمع المجادل وإقحامه)، وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد[٦]. وهذه أصول ترسخت لدى البلاغيين في مصنفاتهم، ولعل من أبرزهم: الجاحظ (٢٥٥هـ) في (البيان والتبيين) بحديثه عن الخطابة ودورها الحجاجي، والجرجاني (٤٧١هـ) في (دلائل الإعجاز) بحديثه عن النظم وما يحمله من دلالات حجاجية، والسكاكي (٦٢٦هـ) في (مفتاح العلوم) بحديثه عن الاستدلال ...، فهي علوم فتحت مجالس لمقارعة (الرأي بالرأي، ومواجهة الخطاب بالخطاب[٧])، وسن مبدأ حرية المناظرة في

(١) ينظر: المرجع السابق، ص٢٦.
(٢) المرجع السابق، ص٢٠، ٢٦، ٢٨.
(٣) البيان والتبيين، ص١٢٩.

(٤) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس –مشروع قراءة–، ص٥٤؛ بلاغة الإقناع في المناظرة، ص٤٧.
(٥) " إن الإقناع وظيفة الخطابة الأساسية، لا يتم بالتفنن في العبارة، والتأنق في اختيار الأساليب، وإنما يتم بالوقوف على الحجج المناسبة، وترتيب تلك الحجج بكيفية تزيد من مفعولها، وبما للمتكلم من مكانة لدى السامعين، وبقدرته على مسّ عقولهم بحسن اختيار الحجة، وتحريك انفعالاتهم بإثارة كل ما يستدرّ العطف"، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس –مشروع قراءة–، ص١٣.
(٦) ينظر: بنية العقل العربي – دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ص٢٧.
(٧) ومردّ ذلك يرجع إلى: "استقرار العرب بالمدن الكبرى، وفساد اللسان، وشيوع اللحن، ورقة الصلة بتلك الروح، واتساع رقعة السلطان، ورغبة الحكام في إرساء نفوذهم السياسي على مؤسسات تمكن من شدِّ الأطراف إلى المراكز، ودخول أقوام من حضارات =

صنوف المعرفة[١]، وهذه – أيضًا– من أدق روافد المناظرات والمناقشات في الأدب العربي بصفة عامة؛ لأن تلازم (الإفهام والإقناع والإمتاع) يساوي القول المقنع المفحم، ولا ينجز مهام الاحتجاج في المناظرة إلا قول مقنع ممتع، وبهذا فـ"جماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر، وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدلة، واللهجة نقية، فإن جامع ذلك السن، والسمت، والجمال، وطول الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال"[٢].

وبالنظر في بيان الجاحظ –على سبيل المثال– نلحظ كثرة النصوص التي تهتم بالكشف عن ماهية المناظرات، إذ تبرز حوارًا ثنائيًّا تقابليًّا، تتفاعل أطرافه تفاعلًا جدليًّا خصبًا[٣]، ومن النصوص الهادفة في هذه السياقات قوله: "لا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر"[٤].

فالقول يُبين إبانة جلية عن ممارسات حوارية بين متقابلين...، فهذه صفات مهمة في إنجاح العملية التخاطبية؛ إذ بها يكون البليغ بليغًا، والمبين واضحًا، والمراد متحققًا؛ فـ(الإبلاغ، والإبانة، والفصاحة، والصحة، والبيان، وحسن التفصيل، والإيضاح، ووضوح الدلالة)[٥] صفات ينبغي أن تتآزر في تأليف الخطاب الجيد، خصوصًا إذا كان مراد المتكلم (الدعوة إلى مقالة، أو إبلاغ الرسالة، أو إقامة حجة، أو الدفاع عن قضية) حسب مقتضيات السياق والمقام؛ إذ يجعلان من البلاغة فنًّا تأثيريًّا عليّ الشأن؛ حيث (استمالة القلوب، وثني الإقناع، والتصديق، وميل الأعناق، وفهم العقول، وإسراع

أخرى سعى أُولو الأمر إلى احتوائهم وإدخالهم في صلب جهاز الدول، وتمكينهم من المناصب المرموقة، أحيانًا يضمنون بذلك ولاءهم، ويضعفون من حدّة انتماءاتهم الحضارية والعقائدية الأولى، وقد تضافرت هذه العوامل على خلق ملابسات حضارية وفكرية جديدة، وصراعات مذهبية، وتوترات في المجتمع، ساهمت بقسط وافر في إذكاء الجدل والاحتجاج حول قضايا كان بعضها متصلًا بمقومات الحضارة العربية الإسلامية من الوجهة اللغوية والبيانية". ينظر:التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس –مشروع قراءة–، ص٥١.

(١) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس –مشروع قراءة–، ص٥٣؛ بلاغة الإقناع في المناظرة، ص٦١، ١٦٢، بتصرف يسير.

(٢) البيان والتبيين، ص٩٢.

(٣) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس –مشروع قراءة–، ص١٦٠، ١٦٢، بتصرف يسير.

لقد تناول موضوع (الصمت والنطق) من وجهات مختلفة، وعبّر أصحابها عن آراء متضاربة، ولم يقتصر على مجرد الجمع والمقابلة بين الموافق، بل رجّح بعض المسائل على بعض ...، وأطلق على الفريق الأول المعترض: (أصحاب البلاغة والخطابة)، وأطلق على الفريق المخالف لهم: (صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبيّن)، وذهب في الرد عليهم بمذاهب شتى، تعددت بها الحجج، وتنوعت طرق الاستدلال. ينظر: المرجع السابق، ص١٦٢.

(٤) البيان والتبيين، ص٩٢.

(٥) ينظر: التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس –مشروع قراءة–، ص٦٥ وما بعدها.

النفوس)[١].

المبحث الثاني:

البديع بين الظاهرة الوظيفية ومقتضيات الإقناع

إن جوهر علم البديع[٢] عند البلاغيين[٣] يكمن في تحقق مراعاة مقتضى الحال مع وضوح الدلالة، ولا يقتصر – مطلقًا – على الظاهرة التحسينية الشكلية؛ وإنما يتجاوزها إلى غايات وقيم يستدعيها

(١) ينظر: البلاغة العربية وأصولها، ص٢٠٥ وما بعدها؛ بنية العقل العربي –دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية–، ص٢٧، ٣٠؛ بلاغة الإقناع في المناظرة، ص١٩٨، بتصرف يسير.

(٢) ورد في كتب المعاجم والمصطلحات البلاغية أن مادة (ب – د – ع) تدور في أصلها حول عدة معانٍ، منها: البراعة، والاختراع، والجدة، والإبداع، والبديع هو: الجديد المخترع، والبارع المبدع... أما في الاصطلاح البلاغي فيُعَرف بقولهم: "علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة"، وهو –أيضا– "علم يُعرف به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حُسنًا وطلاوة، وتكسبه بهاءً ورونقًا بعد مطابقته لمقتضى الحال ووضوح دلالته على المراد"، والوجوه والمزايا فيه على ضربين: ضرب يرجع إلى المعنى، ويسمى بالمحسنات المعنوية، وضرب يرجع إلى اللفظ، ويسمى بالمحسنات اللفظية. ينظر: لسان العرب، مادة (بدع)، ٦/٨. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، ص٣٧٩. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، ط١٧، (مكتبة الآداب، ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م)، ٥٧١/٤. عقود الجمان في علم المعاني والبيان، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، (دار الفكر للطاعة والنشر، بيروت، لبنان)، ص١٠٤. بديع القرآن، ابن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق: حفنى محمد شرف، (نهضة مصر للطباعة والنشر)، ص٨ علم البديع –رؤية جديدة–، أحمد أحمد فشل، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٦م)، ص٥.

(٣) من أوائل العلماء الذين تحدثوا عن البديع في مؤلفاتهم: الجاحظ (٢٥٥هـ) في كتابه: البيان والتبيين، ٥١/١؛ وابن المعتز (٢٩٦هـ) في كتابه: البديع في البديع، ص١؛ والقاضي الجرجاني (٣٩٢هـ) في كتابه: الوساطة بين المتنبي وخصومه، ص٣٤؛ وأبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) في كتابه: الصناعتين: الكتابة والشعر، ص٢٦٧؛ وابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ) في كتابه: العمدة، ٢٦٢/١؛ وعبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) في كتابه: أسرار البلاغة، ص٢٠؛ وابن منقذ (٥٨٤هـ) في كتابه: البديع في نقد الشعر، ص١٢؛ وابن أبي الأصبع المصري (٦٥٤هـ) في كتابه: بديع القرآن، ص٨؛ وتحرير التحبير، ٨٣/١؛ والخطيب القزويني (٧٣٩هـ) في كتابه: الإيضاح، ص٣٣٤؛ والسيوطي (٩١١هـ) في كتابه: شرح عقود الجمان، ص١٠٤ وما بعدها.

السياق في الشاهد النصي، فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرًا، أو يستجيد نثرًا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، أو خلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى جرس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرءِ في فؤاده، وفضل يَقْتدحه العقل من زنادة[٤].

وعليه، فالحسن البديعي ينبغي أن تكون في سياقه النصي بلاغة وإبانة، يتخذه الحُذاق من الكُتّاب والشعراء وسيلة يفيدون به السامعين في نشر آرائهم والدفاع عنها، هذا ما يُحقق للبديع خاصية الإقناع والإمتاع معًا، الإقناع يكمن في الإفادة، والإمتاع يكمن في الحسن، وأصل الحسن في المحسنات البديعية أن تكون الألفاظ توابع للمعاني، لا أن تكون المعاني لها توابع[٥]، وخير ما يستدل به في هذا المقام قول الجرجاني: "ولن تجد أيمن طائرًا، وأحسن أولًا وآخرًا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن تُرسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها"[٦]؛ لذا لا ينبغي قصر المحسنات البديعية على الزينة اللفظية المتمثلة في أجراس الحروف وهيئاتها، دون أن تكون مستوفية

(٤) ينظر: أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، (مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة)، ص٦.

(٥) ينظر: مفتاح العلوم، ص٥٤٢.

(٦) ينظر: أسرار البلاغة، ص١٠.

لبلوغ الغرض منها، من هنا وجب توظيفها توظيفًا جيدًا في السياق النصي؛ لتكون مكونًا أساسيًّا في تأصيل البنية الدلالية، ولتعكس الجدة والإبداع في طرائق التعبير؛ مما يساهم في الثراء والتنوع الدلالي، مع الابتعاد عن التكلف والتوعر في بناء الكلام، فـ"الألفاظ في سياق الإقناع تؤدي بالضرورة وظيفة الإفهام، ولكنها لن تكون ألفاظًا بلاغية إلا إذا كانت تؤدي وظائف الإغراء والإمتاع، وهذه المكانة التي يمنحها الجاحظ لوظيفة الإمتاع التي جعلت مصطلح البديع ذا شأن كبير عند أهل الشعر والنثر"(١)، فقد قال الجاحظ: "مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال"(٢)، وهذا دليل قاطع على قوة البلاغة في صلتها بالإقناع؛ حيث حُسن بناء النص الأدبي من خلال الصور والألفاظ، وكيفية نظمهما، وهذا يتطلب متكلمًا ذا كفاءات عالية.

فالمعاني عند السيرافي تتسم بحيوية أكثر وضوحًا، فهي تحولات أسلوبية دلالية، اتجهت بالبديع من إطار الوظيفة التحسينية إلى مستوى دلالي جديد تمثل في وظائف الإقناع والمحاجة؛ مما أكسب النص طاقات إقناعية حجاجية، والبديع بهذا المنظور الوظيفي "يستهدف التأثير في السامع، فيكون بذلك ناجحًا فعالًا، وهذا أول معيار لتحقق السمة الحجاجية، غير أنه ليس معيارًا كافيًا؛ إذ يجب ألا تُهمل طبيعة السامع المستهدفة، فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسامع، ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة على إقناعه، فضلًا عن استثمار الناحية النفسية في السامع من أجل تحقيق التأثير المطلوب فيه"(٣).

- **الانتقال من الظاهرة الوظيفية إلى مقتضيات الإقناع:** إن مقياس الجودة يكمن في توظيف الفنون البديعية توظيفًا يخدم السياق ويتطلبه المقام؛ لكي تتضح حقيقة التميز والأصالة في تقديم الحجج التي تُقوي المعنى، ومدونة السيرافي تُعد نموذجًا تندمج في تكوينه عناصر البيان مجتمعة، وفق ثلاثة مستويات: تركيبي، ودلالي، وحواري.

الأول: مستوى تركيبي، يتمثل في صحة الاستدلال الإقناعي(٤)، من خلال سوق براهين منطقية عقلية تبرز جهل متّى بحقيقة علم المنطق؛ لذا ساق السيرافي جملة من المسلمات بطريقة جمعت بين الإقناع والإمتاع، ويضم هذا المستوى مجموعة من الحجج الإقناعية متمثلة في قيم الاحتجاج بالشواهد القرآنية والشعرية(٥)، فـ"هي حجج جاهزة

(١) بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب، ص١٧٧.
(٢) البيان والتبيين، ص٣٢.
(٣) التداولية والحجاج: مداخل ونصوص، ص٢١.
(٤) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٢٩.
(٥) ناقش عبد اللطيف عادل هذا الجانب تحت عنوان: الاشتغال الحجاجي للشاهد في المناظرة. ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، ص٢٣١–٢٤٢.

تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مصادقة الناس عليها وتواترها"[١]. وبالنظر في مناظرة السيرافي نلحظ أن الاحتجاج بالشاهد القرآني جاء في الأجزاء الأخيرة من المناظرة في السياق العلمي –شرح وجوه ومواقع حرف الواو في الكلام–؛ تأكيدًا وتقوية لصحة ما يذهب إليه السيرافي في إثبات جهل متّى، ومحاولة إلزامه الحجة، إذ يقول: "... ومنها أن تكون أصلية في الاسم، كقولك: واصلٌ واقدٌ وافدٌ، وفي الفعل كذلك، كقولك: وَجِل يَوْجل، ومنها: أن تكون مفخمة، نحو: قول الله عز وجل :(فلما أسلما وتله للجبين،وناديناه)، (الصافات: ١٠٣)، أي: ناديناه ...، ومنها: معنى الحال في قوله عز وجل: (ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين)،(آل عمران: ٤٦)، أي: يكلم الناس في حال كهولته ..."[٢].

ومما يلحظ أن السيرافي وظّف القيم الحجاجية في الاستدلال بالقرآن توظيفًا يُثبت أحكامًا ودلائل تكشف جهل متّى وقصوره عن معرفة مسلمات النحو العربي، وفي سياق توظيف هذه القيمة الحجاجية استند إلى لون من البديع في توضيح حججه الاستدلالية، إذ مثّل بقولهم: (وَجل يَوْجل) جناس ناقص، (واقِدٌ وافد) جناس لاحق؛ مما أكسب السياق الحجاجي بعدًا موسيقيًّا أضفى على الكلام رقة وعذوبة.

وفي موضع آخر يقول: "فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك، وفي تحقيقه كان اجتهادك، إلّا نفعًا يسيرًا من وجه واحد، وبقيت عليك وجوه، فأنت كما قال الأوّل:**حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء**" [٣]، ويقول أيضا: "أخطأت، وتعصبت، وملت مع الهوى، فإن عِلمَ العالِم مبثوث في العالَم بين جميع من في العالم؛ ولهذا قال القائل:

العلم في العالم ونحوه العاقل

ولا شك في أن الحجاج بالمثل الشعري له قوة الإقناع في سياق المحاجة، وهذا مما استدعاه السياق والمقام؛ لأنه يسهل عملية الإقناع والإلزام بالحجة[٥]، فالقيم والمعاني المستخلص من تلك الشواهد الشعرية تُعد في مجملها براهين تكشف حقيقة جهل متّى، وبطلان ما يدعو إليه من علم المنطق، فهي ردود أفعال إزاء صنيع القنائي وموقفه من علم النحو العربي.

ومن بلاغة السيرافي أنه مزج تلك القيم الحجاجية بألوان بديعية، من بينها: بلاغة الإسهام والإرصاد في قول أبي نواس (حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء)، وبلاغة السجع في قوله: (لم ينفعك الوزن الذي كان عليه **اعتمادك**، وفي تحقيقه كان **اجتهادك)**، وبلاغة مراعاة النظير في (أخطأت، تعصبت، ملت مع الهوى) فإنها أمور تدل دلالة بينة على الجهل والتعصب بغير دليل، وبلاغة الجناس

(١) المرجع السابق، ص٢٣٣.
(٢) الإمتاع والمؤانسة : ٩٥/١.
(٣) المرجع السابق: ٩٠/١، ٩١.
(٤) المرجع السابق.
(٥) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجًا، ص٨١.

الناقص في (العلم في العالم)، واللاحق في (مبثوث، محثوث)، والمحرف في (العالِم، العالَم)، فالبديع يُتيح للسيرافي قوة في إيصال الحجج وبلوغ المراد؛ لذا برزت المقاصد الإقناعية بصور أكثر جمالًا وتأثيرًا في نفوس السامعين، فإن تآزر الفنون البديعية في سياق الاستدلال الحجاجي يضيف إلى النص إيقاعات موسيقية متناغمة، تأثر إيجابًا في نفوس السامعين ...، فالسيرافي أقام الحجج العقلية ليبرهن على صحة الاستدلال الذي وظفه في السياق، فإن "الذوات المتفاعلة في المناظرة –أبا سعيد وأبا بشر بن متّى– تعكس رؤى فكرية علمية حول النحو العربي والمنطق اليوناني، في سياقي المدافعة والمحاجة"(١).

ثانيًا: مستوى دلالي، تمثل في صحة الاستدلال التبليغي(٢)، من خلال التأثير في السامعين بأسلوب إقناعي بليغ، فصاغ حججه بأساليب وصور استدلالية جمالية قامت على المحاجة والموجهة لمتّى؛ بغية إقناع السامعين ببطلان ما ذهب إليه في حديث المنطق، فغلبت الموازنات الصوتية الإيقاعية بين المعاني التي من بينها على سبيل التمثيل:

- **القيم الحجاجية لحسن التخلص،** ومن أمثلة ما جاء في المناظرة قوله: **(وبعد،** فقد ذهب عليك شيء هاهنا، ليس كلّ ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن، وفيها ما يكال ... **ودع هذا،** إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها، واصطلاحهم عليها، وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ...، وهاهنا مسألة، تقول: إن الناس عقولهم مختلفة، وأنصباؤهم منها متفاوتة ...، وحدثني عن قائل قال لك ... ومع هذا فحدثني عن الواو ما حكمه؟ ... أترى أن هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها؟ ... ودع هذا، هاهنا مسألة قد أوقعت خلافًا ... ودع هذا أيضًا ...)، وغيرها(٣).

تظهر بلاغة السيرافي في الانتقال بين الحجج بطرق بديعية، تمثلت في براعة التخلص الذي وظف في السياق كأداة إقناعية، وضعت متّى أمام حجج عقلية منطقية تتكاثر وتتآزر لتصل جملة وتفصيلًا إلى جمهور السامعين؛ بهدف إقناعهم بجهل خصمه فيما يدعيه لنفسه من علم ودراية وتمكن. والذي يبرز بلاغة السيرافي –أيضًا– مقدرته الذهنية في مزج خاصيتي الإقناع والإمتاع؛ لذا عرض احتجاجات قوية متنوعة بهذا الفن البديعي عن طريق الانتقال من سؤال إلى آخر دون أن ينتظر جوابًا من أبي بشر، وهذا غاية في الإفحام والإسكات والإلجام بالحجج القاطعة التي توالت في السياق عن طريق

(١) بلاغة الإقناع في المناظرة، ص١٨٤.
(٢) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٢٩، ٥١.
(٣) الإمتاع والمؤانسة: ١/٩٠، ٩١.

حسن التخلص؛ حيث الإجادة في توالي عرضها دون إعطاء مهلة للرد والنقاش، وهذا مما يزيد في معدل الانفعال لتحقق الإقناع.

ومما زاد من بلاغة حسن التخلص أنه أتى في سياق حجاجي بديعي، يقول: (ودع هذا، **إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها، واصطلاحهم عليها، وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم التّرك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه، ويتخذوه قاضيًا وحكمًا لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكره رفضوه؟**)، وغاية السيرافي من الجمع بين حسن التخلص والمذهب الكلامي ومراعاة النظير والاستفهام والطباق والمقابلة أن يقنع بعلمه وثقافته أحوال السامعين، ويبعد عنهم مظنة تصديق الجهل الذي يتخبط به متّى في علم المنطق، فالصياغة اللفظية التي ينشئها السيرافي هي حصيلة صراع بين مقتضيات القواعد، ومقتضيات التعبير، ومقتضيات القصد، وإنها في النهاية صياغة لفظية تنم عن المعنى المقصود(١).

– **القيم الحجاجية للسجع**، ومن أمثلة ذلك قوله: (النظم المألوف، والإعراب المعروف)، (لم ينفعك الوزن الذي كان عليه **اعتمادك**، وفي تحقيقه كان **اجتهادك**)، (الأجسام المرئية، المعقولات المقرَّرة، الشبه المحفوظة، والمماثلة الظاهرة)، وليس غاية السجع في المقام الأول إظهار جمال الأسلوب ورونقه، والتفنن في اختيار الألفاظ، بل إثبات الحجج العقلية في نسق نغمي متوازن –حيث توافقت الكلمات الأخيرة في حرفها الأخير–، يحمل تدرجًا منطقيًّا في تأكيد الحجج وجذب المتلقي لها؛ حيث وردت الجمل المسجوعة بتأكيد جديد يُقوّي الحجج ويدعمها، ومن القيم الحجاجية لتوظيف السجع –هنا– تأكيد حقيقة الاختلاف والاضطراب الذي يعيشه مناصر المنطق (متّى بن يونس) في مواجهة مناصر النحو (أبي سعيد).

ثالثًا: مستوى حواري، تمثل في صحة الاستدلال التقابلي التفاعلي(٢)، فالسيرافي عمد إلى صيغ السؤال والجواب لإثبات الحجج، وإلزام متّى بن يونس بها؛ بغية تنزيل الحقائق على وجهها الصحيح، "ولذلك لم يكن بوسع أبي سعيد السيرافي أن يتألق في الدفاع عن النحو العربي لولا وجود مخاطب مسؤول مشارك هو متّى بن يونس، فالتخاطب والتحاور في سياق المناظرة دليل على خاصيتها الاستدلالية ... فالذي يحدد ماهية الخطاب إنما هو العلاقة الاستدلالية"(٣)، ومن هنا فالمناظرة تُعد ممارسة حوارية، الغرض منها الاشتراك في التحاور والتفاعل؛ للوصول إلى نتيجة سليمة(٤)؛ لذا يطالب السيرافي متّى في فاتحتها بتعريف المنطق قائلًا: (حدثني عن المنطق ما تعني به؟)، وبهذا نشأ الحوار في صور متنامية، تشتمل على خاصيتي

(١) ينظر: التداولية والحجاج: مداخل ونصوص، صابر لحباشة، ص٢٩، بتصرف يسير.

(٢) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٢٩، ٥١.
(٣) بلاغة الإقناع في المناظرة، ص١٨٦.
(٤) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٢٢.

(الحضور والمباشرة)[١]، فهاتان الصفتان كفيلتان بتحقيق الإقناع، ومن أبرز روافد هاتين الصفتين ما يلي[٢]:

- **توظيف ضمائر التكلم والخطاب في السياق الحواري**، ومن ذلك قوله: (حدثني ... فإنا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك ... أخطأت ... أعني به ... فإني أعرف به)، وغيرها كثير مما جاء في سياق المناظرة، وتلك الضمائر تكشف خاصية التنوع في ضروب التعبير، وتجعل للحوار حضورًا فاعلًا في السياق، ينتج عنه سلاسة انقياد السامعين إلى حيث يريد السيرافي من بطلان دعوى متّى.
- **التناوب المتبادل في الخطاب الحواري**، ومن ذلك كثرة استعمال صيغة: (قال متى)، (فقال أبو سعيد)، فتلك الصيغ تكاثرت في المناظرة بدرجة ملحوظة، وفي مجملها تشير إلى أن معرفة متّى بعلم النحو وأصوله وقوانينه معرفة ضحلة لا تؤهله إلى التحاور مع السيرافي.
- **تتابع الأسئلة وكثرتها**، ومن ذلك (حدثني عن المنطق ما تعني به؟، فمن لك بمعرفة الموزون ...؟، فمن أين يلزم الترك والهند والعرب أن ينظروا فيه ...؟)، وغيرها مما جاء في المناظرة، فإن كثرة التساؤلات في سياق المحاجة والمواجهة دليل على استمرارية الحوار الحجاجي؛ لشدة التباين والاختلاف في الأفكار العلمية.

ولو تأملنا الجانب الحواري في سياق المناظرة لوجدنا حضور المحسن البديعي في نسق الكلام بينًا، ومن ذلك "قال أبو سعيد: إذا سلّمت لك أن الترجمة صدقت وما كذبت، وقوّمت وما حرفت، ووزنت وما جزفت، وأنها ما التاثت ولا حافت، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدمت ولا أخرت، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام، ولا بأخص الخاص، ولا بأعم العام، فكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه"[٣]، فكل محسن – من الطباق، والسجع، ومراعاة النظير، والإسهام– له بُعد تأثيري حجاجي قوي أدى إلى مضاعفة درجة الإقناع لدى متّى، الذي ظنّ أنه قد بلغ الغاية في الإحاطة بعلم المنطق، وهو في الحقيقة لم يقف على الآليات التي تُؤهله لتمام المعرفة به، فالجرس الموسيقي في بناء الحجج من خلال طباق السلب في: (صدقت وما كذبت – قوّمت وما حرَّفت – وزنت وما جزفت)، وطباق الإيجاب في: (ما التاثت ولا حافت – لا نقصت ولا زادت – لا قدمت ولا أخرت – الخاص والعام)، والإرصاد والتسهيم في: (ولا أخلّت بمعنى الخاص والعام، ولا بأخص

(١) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة، ص١٨٤، بتصرف.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص١٨٤، ١٨٩، ١٩١، ١٩٧.
(٣) الإمتاع والمؤانسة، ٩٢/١.

الخاص، ولا بأعم العام)، ومراعاة النظير في: (لا حجة ... ولا برهان ... ولا حقيقة)، واقتران تلك الفنون بالسجع في توافق الكلمات الأخيرة في حرفها الأخير؛ مما أضفى على السياق نغمًا أخاذًا، وجرسًا عذبًا، يجذب المتلقي، ويبعده عن الملل؛ مما جعل العقول تدرك حقيقة مراد السيرافي في إبطال معلومات متّى حول صلاحية علم المنطق، وإمداده بمعلومات صحيحة تُؤكد عدم حاجة العربي للمنطق الذي وضعه أرسطو على أصول لغة يونان، كما أن توظيف البديع يكشف عن براعة السيرافي مقدرته على سبك المعاني؛ مما ألبس الفنون البديعية ضربًا من الحجج أشد وقعًا، وأعمق تأثيرًا، وأكثر ثراءً، و"قد تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، فتكون أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه؛ لِمَا يَهَبُها هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب، وكأنه يراها رأي العين"[1]؛ وبهذا فالمحسنات البديعية بمختلف أنواعها، إن وظفت في سياق النص الإقناعي التأثيري، والاستدلال العقلي المنطقي، تؤدي وظائف حجاجية تأثيرية عن طريق استمالة القلوب، وإسراع النفوس إلى التصديق، وفهم العقول للمعاني المرادة.

المبحث الثالث:

القيم الحجاجية للبديع وأثرها في الإقناع

يعد البديع من الأساليب البلاغية البارزة في تحقيق الإقناع العقلي؛ لما يقوم به من المزج بين الثنائيات المتضادة، والجمع بين المقابلات، والانسجام بين المتآلفات، في نسق بديعي يمنح المعاني عمقًا، والتعبير جمالًا، والنفوس إقبالًا، وهذه غاية الإقناع، فإنه يحصل عن طريق ملامسة الوجدان؛ بغية حصول الإفهام، وهذا يتطلب بحث في الجوانب الانفعالية والقيم الذاتية وراء كل انفعال يُحدثه المقام الحجاجي من: تحريك العقل، وتوجيه الجمهور، وقوام ذلك التركيز على ثلاثة أركان، **الأول:** المتكلم، وينبغي أن يكون على قدرٍ من الفطنة والفضيلة والتلطف للسامعين، **والثاني:** جمهور السامعين، ولابد في إقناعهم من التهيئة الانفعالية؛ بغية استدراجهم وانقيادهم واقتناعهم بما يُلقى إليهم، **والثالث:** القول، ويجب بناوه بطرق حجاجية مليئة بالأدلة القادرة على إقامة الاعتقادات أو تغييرها[2]، وعليه، فمناظرة السيرافي حققت العمليات الإقناعية أو الحجاجية من جانب المتكلم، والسامع، والقول، وهدفها يرتكز في المقام الأول على إقناع متّى بن يونس بوسائل عقلية تأثيرية، تتسم بالتفاعل الإيجابي في تقرير الحقائق وبرهنتها بأساليب بلاغية بديعية، فالطباق، والمقابلة، ومراعاة النظير، أساليب تؤدي وظائف إقناعية استدلالية، وأغراض تواصلية[3]، وسيتضح في هذا المبحث أن البديع فنٌّ أسلوبيٌّ، ورافدٌ معنويٌّ، يُنمي الطاقات

(١) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص٣٨.

(٢) ينظر: بلاغة الإقناع في المناظرة ،ص: ٥٤، ٥٥.

(٣) ينظر: التداولية والحجاج مداخل ونصوص، ص٥٠.

الحجاجية داخل السياق، بعيدًا عن التشكيل الصوتي، والزخرفة اللفظية المتجردة من الوظائف المعنوية.

المطلب الأول: الطباق والمقابلة، وأثرهما في التوجيه الحجاجي

إن الطباق والمقابلة من أنجح الأساليب في تحقيق الأغراض والمقاصد الحجاجية، وحُسن توظيفهما في السياق دليلُ بلاغة الكلام، ورجاحة المتكلم، وعليه ينقاد المخاطب نحو الإقناع ....، فالطباق في اللغة مأخوذ من قولهم: (أطبقت الرحى)، إذا وضعت الطبق الأعلى على الأسفل، ومنه –أيضًا–: (طابق الغطاء الإناء)، أي: انطبق عليه وتطبق، فيدل على وضع شيء مبسوط على مثله حتى يغطيه[١] ....، والضد: كلُّ شيء ضَادَّ شيئًا ليغلبه، فالسواد ضد البياض، وضد الشيء: خلافه، وقد ضاده وهما متضادان، يقال: (ضادني فلان): إذا خالفك، فأردت طولًا وأراد قصرًا، فهو ضدك وضديدك[٢]، فالمطابقة تعني الموافقة، والتطابق بمعنى الاتفاق، ويسمى بالتضاد، والتطبيق، والتكافؤ، والمطابقة[٣]. وفي الاصطلاح البلاغي هو: "الجمع بين الشيء وضده"[٤]، وهذان المتضادان قد يكونا اسمين، أو فعلين، أو حرفين[٥].

وأما **المقابلة** وهي في اللغة: من المواجهة، فـ(القاف، والباء، واللام) أصل واحد صحيح، يدل على مواجهة الشيء للشيء[٦]، وقابل الشيء بالشيء مقابلة وقبالًا، أي: عارضه، والمقابلة: المواجهة، وقد تكون المواجهة والمقابلة بالتضاد أو بالموافقة[٧]، وفي الاصطلاح البلاغي: "أن يؤتى بمعنيين متوافقين، أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب"[٨].

ولا يكتفى أن يؤتى بالطباق والمقابلة مجردين من أيِّ أثرٍ فنيِّ دلاليِّ، وإنما ينبغي أن يزيدان في دلالة المعاني، وإبرازها، وتأكيدها، وسبكها بصورة أكثر سلاسة، وأكثر انتظامًا؛ حتى تبرز في غاية الحسن، والرونق، والكمال، فإن لهما –الطباق والمقابلة– "شعب خفية، وفيهما مكامن تغمض، وربما التبست بها أشياء لا تتميز إلا بالنظر الثاقب، والذهن اللطيف"[٩]؛ مما جعل السيرافي يُحسن توظيفهما في سياق مقارعة الحجة بالحجة، والرأي بالرأي؛ ليكونا أداة فاعلة في معالجة القضايا من منظور عقلي، وفق ما اصطلح العلماء على فهمه بمنهجية علمية عقلية، تبني أسسًا جوهرية، وتهدم معتقدات خاطئة، وتوجه العقل بالدليل الراجح نحو

---

(١) ينظر: أساس البلاغة، ص٥٩٤؛ مقاييس اللغة، مادة (ط – ب – ق)، ص٤٣٩.
(٢) ينظر: لسان العرب، مادة (ض – د – د)، ٢٦٤/٣.
(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، ٢٥١/١–٦٦/٢.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ٢٥٦/٢.
(٥) ينظر: المرجع السابق.
(٦) ينظر: مقاييس اللغة، مادة (ق، ب، ل)، ٥١/٥.
(٧) ينظر: لسان العرب، مادة (ق، ب، ل)، ٥٣٧/١١؛ معجم المصطلحات البلاغية، ٢٨٤/٣.
(٨) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ٣٣/٣.
(٩) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية، ٢٦٠/٢

الإقناع، ولعل من أبرز القضايا العلمية والفكرية التي ساهم الطباق والمقابلة في تأكيدها بطريقة متماسكة متعاضدة ما يأتي:

القضية الأولى: غياب ركائز الفهم والإفهام في التطبيق العملي للترجمة:

وفي هذه القضية يقول متّى بن يونس: "يونان وإن بادت مع لغتها، **فإن الترجمة حفظت الأغراض، وأدّت المعاني، وأخلصت الحقائق**"(١)، والمعتمد الذي يعوّل عليه متّى هو الترجمة، فبها يتفاوضون ويتفاهمون في تفقه الأغراض والمعاني والحقائق، والناقل لهذه المعاني ينقل عن لغة أخرى وسيطة، هي اللغة السريانية، فما حال صحة الأغراض والمعاني والحقائق في ظل غياب الفهم والإفهام؟، "فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى أخرى عربية؟"(٢).

فأجاب السيرافي مناقشًا قضية الترجمة في غياب مرتكزات الفهم والإفهام قائلًا: "إذا سلّمت لك أنّ الترجمة **صدقت وما كذبت، وقوّمت وما حرّفت، ووزنت وما جزفت، وأنها ما التاثت ولا حافت، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدّمت ولا أخّرت، ولا أخلّت بمعنى الخاصّ والعامّ**، ولا بأخصّ الخاصّ، ولا بأعمّ العامّ –وإن كان هذا لا يكون، وليس هو في طبائع اللغات، ولا في مقادير المعاني–، فكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلّا ما أبرزوه"(٣)، وفي سياق المحاجة عرض السيرافي مجموعة من الحجج العقلية بطريقة فنية، إذ أخذ يعرض المعاني بتدقيق شديد؛ ليثبت لمتّى حقيقة الترجمة التي عوّل عليها في حفظ الأغراض، وأداء المعاني، وإخلاص الحقائق، وأن ما يذهب إليه زيف وتلفيق محال التسليم به، فالثنائيات الضدية التي انتظمت في السياق، وتمثلت في أسلوب الطباق بوجه عام، كشفت لمتّى حقائق كان يجهلها، ووضعت مفاتيح ينبغي أن يمتلكها، من العلم والفهم، والدراية والفطنة، ومن وسائل الإقناع التي لجأ إليها السيرافي أنه قال –في بداية الأمر– بذكاء وقّاد: إذا سلّمتُ لك أن الترجمة **(صدقت وما كذبت)**، و**(قومت وما حرفت)**، و**(وزنت وما جزفت)**، فلا يشق –بهذا النمط من الصياغة– على متّى؛ لأن السيرافي ناقش القضية بمنطلق جوهري؛ إذ قال: (إذا سلّمت لك)، فحمل القول على التسليم أبلغ من رفضه في تحقيق الإقناع العقلي، وهذا يعزز من حضور شخصية السيرافي العقلية، وقدرته الحجاجية في معالجة القضايا، فأثبت بطباق السلب مجموعة من الصفات، وهي:**(الصدق، والتقويم، والضبط)**، ونفى أخرى مضادة، وهي: **(الكذب، والتحريف، والمخالفة)**، وجعلها للترجمة والنقل تسليمًا لما عليه الخصم من جهل وتعصب، وهذا أجدر لإزالة اللبس، وتحقيق

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٩١/١.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق، ٩٢/١.

المراد، وإقناع السامعين، وإيقاظ الأذهان لما سيأتي، فأحسن غاية الإحسان في إبطال مزاعم متّى بن يونس حول قضية تفخيم وظائف الترجمة في حفظ الأغراض، وأداء المعاني، وإخلاص الحقائق، وتزاحم الأضداد في السياق يكشف عن الفوارق الأساسية في ترجمة العلوم والمعارف ونقلها من لغة إلى أخرى، فصفة (الصدق، والتقويم، والضبط) تعود بالنفع بشرط مهارة الناقل العلمية والعقلية والفكرية، وصفة (الكذب، والتحريف، والمخالفة) تعود بالضرر الواقع بسبب إخفاق الناقل، وضياع الفائدة المرجوة، ولم يكتفِ السيرافي بهذه الثنائيات المتضادة، بل أتى بجملة من الثنائيات المتناقضات عن طريق طباق الإيجاب؛ حيث نفي الطرفين، فالترجمة **(ما التاثت ولا حافت)**، و**(لا نقصت ولا زادت)**، و**(لا قدمت ولا أخرت)**، و**(لا أخلت بمعنى الخاص والعام)**، فبأيِّ شرفٍ تذكر، ولأي مزيةٍ تنسب، وفي توظيف طباق الإيجاب هدمٌ لأهم المقومات التي يقوم عليها منطق يونان وثقافته، ومما يرشح أسلوب الطباق اندماج التقابل بين المعاني المتنافرة في قوله: (ولا أخلت بأخص الخاص، ولا بأعم العام)، فقابل بين لفظي: (أخص) و(أعم)، ثم عاد وقابل بين لفظي: (الخاص) و(العام) تأكيدًا وتقريرًا لحقيقة الترجمة والنقل، فهي آفة لبعض العلوم والمعارف، إذ لا يستوفيها الناقل أمانة البيان والإفصاح، فكيف والناقل متّى بن يونس، وقد قال عنه السيرافي في سياق المناظرة: "وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف تدعونا إلى لغة لا تفي بها ... فامسح وجهك بالسلوة عن شيء لا يستطاع؛ لأنّه منعقد بالفطرة والطباع، وأنت لو فرّغت بالك، وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللّغة التي تحاورنا بها، وتجارينا فيها، وتدارس أصحابنا بمفهوم أهلها، وتشرح كتب يونان بعبارة أصحابها، لعلمت أنّك غنيّ عن معاني يونان، كما أنك غنيّ عن لغة يونان"(١).

ومما زاد في قوة التبكيت، وحدّة الانفعال، تعريض السيرافي بجهل يونان عامة، ومتّى بن يونس خاصة، إذ استوجب المقام أن يقول: (وكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه)، فهذا تعريض بجهلهم وتأخرهم في ركب المعارف والعلوم؛ لأن العقول الواعية، والبراهين القاطعة، والحقائق الثابتة تتطلب موازين علمية وعقلية راجحة، وهذا لا يكون لمتّى بن يونس، فحديثه عن منطق يونان إنما هو تعصب وجهل، لا يقومان على دلائل عقلية نقلية. وبتأمل الثنائيات المتضادة –في طباق السلب والإيجاب معًا– يتضح رجاحة الحجاج العقلي وقوته في بيان مآل الترجمة، وعدم وفائها بالأغراض والمقاصد؛ لكون الحقائق والدقائق، والسمات والخصائص، والرموز والاختصارات، لا تستطيع الترجمة أن تبين

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٩١/١ ، ٩٢.

عن جزءٍ منها، فكيف لمتّى أن يُقيمها أداة جوهرية، ومقومًا أساسيًّا تُعبر عن لغة يونان، وتحفظ أصولها وفروعها!، فالسياق والمقام عنصران يدفعان بالسيرافي إلى لفت أنظار المتلقين؛ رغبةً في تحقيق ضربٍ من الإقناع، والاستمالة، والقبول، فستهوي متّى وجمهور المتلقين بطرائق حجاجية نجحتْ في فض النزاع والتسليم، وهذا دليلُ البراعة والإبداع، فالمعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، والبراعة تكون في تخير الجيد منها بحسب المقام[١]، فكلّ ما في النص السابق من دلالات وإيحاءات هي في الحقيقة انعكاسات لما اختلج في نفس السيرافي من اضطراب وحِدّة، وانفعال تجاه منطق متّى، فالطاقات البلاغية الهائلة تمثلتْ في اختيار ألفاظ ذات دلالات مناسبة، كتوظيف أسلوب السجع في توالي الفقرات القصيرة ذات الجرس الصوتي المتناغم، كلفظ: (صدقت، كذبت، قومت، حرفت، وزنت، جزفت، التاثت، حافت، نقصت، زادت، قدمت، أخرت)، وفي لفظ: (الحجة، والبرهان، والحقيقة)، والجرس الصوتي في لفظ: (ما وضعوه، ما أبرزوه)، وكتوظيف أسلوب مراعاة النظير في الجمع بين الألفاظ ذات الدلالات المتوافقة، كقوله: (لا عقول ... ولا برهان ... ولا حقيقة).

إن وراء توظيف المحسنات البديعية –كما استدعاها السياق– تمكينٌ لوظائف معنوية من إكساب النص رونقًا موسيقيًّا يُوقع اللذة والطرب في أذهان المتلقين من جانب، ويُحْدِث توالي الحروف وتكرارها اضطرابًا متلاطمًا يُوقع تنقيصًا ونفورًا يحزّ في نفس متّى من جانب آخر، وهذا مما يزيد في ثراء المعنى.

القضية الثانية: قضية الإيغال في تمجيد منطق يونان:

وفي هذه القضية يقول متّى: "يونان من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة، والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كلّ ما يتّصل به وينفصل عنه، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر، وانتشر ما انتشر، وفشا ما فشا، ونشأ ما نشأ، من أنواع العلم، وأصناف الصنائع، ولم نجد هذا لغيرهم"[٢]، وعليه فمتّى بحاجة إلى قدر من التفكير المتأني، وقدر من التركيز في إطلاق الأحكام وتعميمها، وبهذا يتوجب عليه أخذ رد السيرافي بعين الاعتبار والاهتمام، إذ يقول: "أخطأت، وتعصّبت، وملت مع الهوى، فإنّ علم العالم مبثوث في العالم بين جميع من في العالم؛ ولهذا قال القائل:

العلم في العالم ونحوه العاقل

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع مَن على جدد الأرض؛ ولهذا غلب علم في مكان دون علم، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة، وهذا واضح، والزيادة عليه مشغلة، ومع هذا فإنما كان يصحّ قولك، وتسلم دعواك، لو كانت يونان معروفة من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة، والفطنة

(١) ينظر: البيان والتبيين، ص٧٢.

(٢) الإمتاع والمؤانسة: ٩٢/١.

الظّاهرة، والبنية المخالفة، وأنّهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدروا، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا، وأنّ السكينة نزلت عليهم، والحقّ تكفّل بهم، والخطأ تبرّأ منهم، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والرذائل بعدت من جواهرهم وعروقهم، وهذا جهل ممّن يظنّه بهم، وعناد ممن يدّعيه لهم، بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء، ويصدقون في أمور ويكذبون في أمور، ويحسنون في أحوال ويسيئون في أحوال، وليس واضع المنطق يونان بأسرها، إنما هو رجل منهم، وقد أخذ عمّن قبله كما أخذ عنه من بعده"(١).

في هذا النص تدرجٌ فكريٌّ منظمٌ في سرد الدلائل والبراهين؛ رغبةً في تثبيط آراء متّى وتسفيهها، وإظهار سوء فهمه، فحقق السيرافي قدرًا عاليًا من التماسك، والتلاحم، والانسجام في عرض مجموعة من الدلائل والبراهين، بصورة أكثر إقناعًا، وأشد تمكنًا؛ حتى تتحول البراهين إلى حجج منتجة فاعلة في ترسيخ المعاني.

فالحجة الأولى في قوله: (**أخطأت، وتعصبت، وملت مع الهوى، فإن علم العالِم مبثوث في العالَم بين جميع من في العالَم ...**)، ما زاد في ثراء المعاني في هذه العبارة(٢) حُسن توظيف الأساليب البديعية، التي من أبرزها: أسلوب مراعاة النظير، فـ(الخطأ، والتعصب، والميل مع الهوى) أمور متوافقة في دلالتها، تدل على بطلان العقل، وفساد الاعتقاد، ثم أسلوب الجناس المحرف بين (العالَم، العالِم)، واللاحق بين (مبثوث، محثوث)، فالقيمة الجمالية تكمن في النغمة الموسيقية التي ترتاح لسماعها الآذان، وتطرب لوقعها النفوس، ثم معنى التقابل في قوله: (غلب علم دون علم، كثرت صناعة دون صناعة)، حيث أُبرزت صورتان، الأولى تميزت بهالة عظيمة من السبق والتمكن في نيل العلم والصناعة في قوله: (غلب، كثر)، والثانية اتصفت بالضعف والتخلف في تحصيل العلم والصناعة.

والحجة الثانية في قوله: (يصحّ قولك، وتسلم

---

(١) الإمتاع والمؤانسة: ٩٢/١.

(٢) يُلحظ أن السيرافي بدأ الخطاب هنا بعقلانية تحث الخصم على =

= استحضار خاصيتي الفهم والإدراك؛ رغبةً في السمو بالعقل البشري نحو التبصر في حقائق الأشياء، والتأمل في دقائقها، فاستوفى جميع مقومات الإقناع العقلية؛ إذ خاطب متّى، وأعلم الجمهور بما يجول في عقله، ويتوقد في وجدانه، من حرقة تجاه تعصب خصمه لثقافة يونان، وتغييب دور الأمم قاطبة، ولو كان ظاهر الأمر كذلك لما (**غلب علم في مكان دون علم، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة، وهذا الأمر في هذا الشأن واضح، والزيادة عليه مشغلة**)، والواضح أن متّى لا يستند في إثبات دعواه إلى حجج يرتضيها العقل، وإنما كان جلّ اعتماده منصبًّا في تقديس منطق يونان، متجاهلًا معيار الصحة في ظهور جميع العلوم وانتشارها، متغافلًا عن أن علم العالِم مبثوث في العالَم بين جميع من في العالَم، وهل هذا لثقافة يونان! ومنطق يونان!، وفي استناد السيرافي إلى توظيف الشاهد الشعري، (العلم في العالم مبثوث * ونحوه العاقل محثوث) ما يزيد من قوة الانفعال بالحجج المنطقية المقرونة بحسن التبصر في المعاني الجوهرية للأشياء، وهذه حقائق ليس في مقدور العقل السليم إنكارها، أو تجاهلها، أو حتى نسيانها، وفي هذا تبكيت وإلجام لمتّى، ونقض لدعواه، فالعلم مبثوث، والعاقل نحوه محثوث، وحياة العقول في التروي والتأني والتثبت.

دعواك، لو كانت يونان معروفة من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة، والفطنة الظّاهرة، والبنية المخالفة، وأنّهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدروا، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا، وأنّ السكينة نزلت عليهم، والحقّ تكفّل بهم، والخطأ تبرّأ منهم، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والرذائل بعدت من جواهرهم وعروقهم، وهذا جهل ممّن يظنّه بهم، وعناد ممن يدّعيه لهم)، فالسيرافي يتوجه إلى متّى بخطابٍ يوقظ العقل، ويبعث الإرادة، إذ يقول: (يصح قولك، وتسلم دعواك)، فأوجز وأبان، وأحسن غاية الإحسان في عرض مجموعة من الأدلة والبراهين غايتها الأساسية إثبات جهل متّى، وتأكيد خطئه، وإقرار قلة درايته، في الإلمام بحقائق المعارف والعلوم المنسوبة للغة يونان، وبطلان ما يذهب إليه من تعظيم وتقديس لمنطقهم، فقد سَلب من جميع المعارف والعلوم قيمتها؛ ليُرجّح ثقافة وعلم يونان، ويا ليت يونان عُرفت من بين جميع الأمم بـ(العصمة الغالبة، والفطنة الظاهرة، والبنية المخالفة ...، وأنّهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدروا، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا)، فوجب تيقظ العقل؛ لأن هاهنا حقائق ينبغي الاقتناع والتسليم بها اقتناعًا تامًّا، وتسليمًا مطلقًا، ومتّى بن يونس –خاصة– بحاجة إلى التدبر والتأمل بعقل متزن؛ رغبة في حصول الإقناع، والتسليم، والاعتراف بفضل الأمم عامة، والعرب خاصة في نشأة العلوم وظهورها، وفي انتشارها وتمكنها، فإن إصلاح العقل وتوجيهه نحو إدراك الحقائق ركيزةٌ مهمة من ركائز هذه المناظرة.

والمتضح أن السيرافي مزج بين الحسن والبيان بعدة طرائق بديعة أسهمتْ في تكوين المعاني وإثرائها، ومن بين تلك الطرائق: **طريقة ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة في النظم**، على غرار قوله: (العصمة الغالبة، والفطنة الظاهرة)، وهذا جمال يستدعيه السياق ويتطلبه، فـ"هو سجع في سجع؛ وهذا الجنس إذا سَلَمَ من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع"[(١)]، فإن توالي الفقرات القصيرة واتفاقها على حرف واحد كحرف (التاء) تارة، و(الواو)، و(الميم) تارة أخرى، جديرٌ بأن يحقق قدرًا من الإمتاع تتوق النفس إليه، وتطرب الأذن لسماعه. **وطريقة الجمع بين المتقابلات عن طريقة المقابلة** في قوله: (والحق تكفل بهم، والخطأ تبرأ منهم)، وهذا يُحمل على مقابلة ثلاثة معانٍ بثلاثة، الأول في (الحق، الخطأ)، فإن الحق أساسه صواب، والباطل أساسه خطأ، والثاني في (تكفل، تبرأ)، والثالث في (بهم، منهم)، وفي قوله: (الفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والرذائل بعدت من جواهرهم وعروقهم)؛ حيث قابل (الفضائل بالرذائل)، و(لصقت بـ"بعدت")، وحرف (الباء) في (بأصولهم)، وحرف (من) في (من جواهرهم). **وطريقة الربط بين الأمور المتناسبة** كقوله: (وهذا جهل ممن يظنه بهم، وعناد ممن يدعيه لهم)، فإن الجهل، والعناد، والظن، والادعاء

---

(١) الصناعتين، ص٢٦٣.

من باب واحد.

وأما الحجة الثالثة ففي قوله: (وهذا جهل ممّن يظنّه بهم، وعناد ممن يدّعيه لهم، بل كانوا كغيرهم من الأمم، **يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء، ويصدقون في أمور ويكذبون في أمور، ويحسنون في أحوال ويسيئون في أحوال،** وليس واضع المنطق يونان بأسرها، إنما هو رجل منهم، وقد أخذ عمّن قبله كما أخذ عنه من بعده، وليس هو حجّة على هذا الخلق الكثير والجمّ الغفير)، فالسيرافي يطلب من متّى استحضار العقل حيث الملاحظة المتأنية في الثنائيات الضدية؛ فهي طريقة ناجحة من طرق الإقناع، يفرض الإلزام والتسليم في حال تجنب التعصب، فجمع بين (بهم، ولهم)، وبين (الصواب، والخطأ)، وبين (العلم، والجهل)، وبين (الصدق، والكذب)، وبين (الإحسان، والإساءة)، وبين (قبل، بعد)، فتارة يصيبون وأخرى يخطئون، وتارة يحسنون وأخرى يسيئون، وهكذا، والدافع لتوظيف الطباق تأصيل منطلق الحرص على الثقافة العربية خاصة، وإبراز قيمتها، وتحقيق نوع من الإقناع بالحجج على أساس مخاطبة العقل بثوابت الأشياء، وهدم مرتكزات التفكير عند متّى وإبطال دعائمها.

ففنون البديع مجتمعة في السياق –من الطباق، والمقابلة، ومراعاة النظير، والسجع، والجناس– تُعد طريقًا من طرق إفهام المعاني، وتحقيقها، وتأكيدها، ورسوخها؛ لتكون المعاني أقرب إلى الاسترجاع، وهذا النهج أحسن وقعًا، وأكثر نفعًا لمتّى بن يونس ولجمهور المتلقين، ولو جاء الكلام مجردًا منها لما أفاد، فإنه "على قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع"(١).

القضية الثالثة: قضية الفهم الخاطئ في تأويل مسائل النحو العربي:

عالج السيرافي في هذه القضية عدة مسائل نحوية، هي كالآتي:

المسألة الأولى: "...أسألك عن حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميّزة عند أهل العقل، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطاليس الّذي تدلّ به وتباهي بتفخيمه، وهو (الواو)، ما أحكامه؟، وكيف مواقعه؟، هل هو على وجه أو وجوه؟، فبهت متّى وقال: **هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه؛ لأنه لا حاجة بالمنطقيّ إليه، وبالنحويّ حاجة شديدة إلى المنطق؛** لأنّ المنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ ..." (٢)، وفي سياق الرد على هذه القضية النحوية يقول السيرافي: "ألا ترى أنّ رجلًا لو قال: «نطق زيد بالحقّ ولكن ما تكلّم بالحق، وتكلّم بالفحش ولكن ما

---

(١) البيان والتبيين، ص٨١.
(٢) الإمتاع والمؤانسة، ٩٣/١.

قال الفحش، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح، وأبان المراد ولكن ما أوضح، أو فاه بحاجته ولكن ما لفظ، أو أخبر ولكن ما أنبأ»، لكان في جميع هذا محرّفًا، ومناقضًا، وواضعًا للكلام في غير حقّه، ومستعملًا اللّفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره، والنحو منطق، ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو، ولكنه مفهوم باللغة، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعيّ، والمعنى عقليّ ..."[١]. وهذه القضية من أشد القضايا مخالفة بين السيرافي ومتّى؛ إذ إن متّى لا يكتفي بتعظيم منطقه فقط، بل يؤكد حاجة النحوي الماسة إلى منطق يونان، وعدم الاستغناء المطلق عنه، وأن النحو لا يمكن أن يقوم بدونه؛ فهو آلة الكلام، ولا شك فالسيرافي بدأ حواره قائلًا: (أخطأت)، وفي التشهير بالخطأ استنكارٌ مطلقٌ لما يصبو إليه متّى من تعطيل وظيفة النحو العربي بلا مرجع يستند إليه في مناقشة قضاياه، ثم أسرع في ضرب الأمثلة؛ إذ إن ضربها في سياق المحاجاة من أقوى طرق الاحتجاج العقلي، وأبلغ وسائل الإقناع، فقال: (ألا ترى أنّ رجلًا لو قال: «نطق زيد بالحقّ ولكن ما تكلّم بالحق، وتكلّم بالفحش ولكن ما قال الفحش، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح، وأبان المراد ولكن ما أوضح، أو فاه بحاجته ولكن ما لفظ، أو أخبر ولكن ما أنبأ»، لكان في جميع هذا محرّفًا، ومناقضًا)، فالتشابه والمماثلة في هذا النص مبنية على التضاد بالنفي؛ إذ أثبتت العديد من الطاقات اللغوية التي تعد من باب واحد؛ للتقريب، والتوضيح، والإفهام، وهذا مما ينبغي أن يدرك ويعقل في كافة مجالات العلم والمعرفة، فأين متّى من هذا؟، وهذا وجه من وجوه فهم المعنى، وقد يحمل النص على مراعاة النظير في الجمع بين (نطق، تكلم، قال، أعرب، أفصح، أبان، أوضح، فاه، لفظ، أخبر، أنبأ)، وفي (محرفًا، مناقضًا، واضعًا، مستعملًا).

والغاية الأساسية أن السيرافي يصب جام غضبه على متّى في الدفاع عن العربية ونحوها، ويقدم برهانًا حجاجيًّا ناصع البيان، يغترف بيانه من صميم المعاني العقلية، ووظف طباق السلب مصورًا التوافق والتشارك في المعنى المقصود، والنتيجة واحدة في لفظ: (نطق، تكلم، أعرب، أبان، فاه، أخبر)، ثم إثبات ما يضادها على الحقيقة في (ما تكلم، ما قال، ما أفصح، ما أوضح، ما لفظ، ما أنبأ)، فالإثبات تارة، والنفي أخرى، أفاد أغراضًا حجاجية، من زيادة التوضيح والتقريب للمعاني؛ حتى تبرز في صورة أكثر وضوحًا، وأشد بيانًا في إظهار حقيقة التضارب في الجمع بين هذه الصفات، وتلك مرتبة عالية من الإقناع العقلي والإمتاع النفسي، فالمقام بحاجة إلى ضرب هذا المثال ولا استغناء عنه؛ لأنه يُبيّن ويكشف ما غمض وتعذر على عقل متّى بن يونس، ويبطل ما ذهب إليه، ويجعله متيقظًا للمتابعة، والملاحظة، والانتباه، وهذا أيسر في تحقيق الإقناع، فإن حقائق الأشياء تعظم في النفوس بقدْر

(١) المرجع السابق.

وقْعها، وشدة الحاجة إلى التذكير بها، وفي هذا ما يُظهر كفاءات السيرافي الذهنية في حسن توظيف الأمثلة والشواهد التي تتصل اتصالًا مباشرًا بالجانب العقلي.

المسألة الثانية: يقول متى: "يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف، فإني أتبلّغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذّبتها لي يونان"[١]. وفي سياق الردّ والاعتراض على متّى أجاب السيرافي قائلًا: (أخطأت)، وعلَّل الخطأ بمبررات عقلية اصطلح عليها العلماء في فقههم للعربية، فقال: أنت فقيرٌ إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها، وكذلك محتاج إلى معرفة حركتها؛ لأن الخطأ والتحريف في الحركات، كالخطأ والفساد في المتحركات[٢]، ومن مهارات السيرافي العقلية الملاحظة الدقيقة الواعية لاستدراك دقائق الأشياء ولطائفها، وهذا ما يساعد على تبكيت متّى، وهدم معتقداته حول العربية، واستحضار غفلته، وقصور إدراكه عن فقه جواهر الأمور؛ ولذلك أتبع السيرافي معارضته قائلًا: "وهذا باب أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة، على أنّ هاهنا سرًّا ما علق بك، ولا أسفر لعقلك، وهو **أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها، في أسمائها وأفعالها، وحروفها وتأليفها، وتقديمها**

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٩٣/١.
(٢) ينظر: المرجع السابق.

وتأخيرها، واستعارتها وتحقيقها، وتشديدها وتخفيفها، وسعتها وضيقها، ونظمها ونثرها وسجعها، ووزنها وميلها، وغير ذلك ممّا يطول ذكره، **وما أظنّ أحدًا يدفع هذا الحكم أو يشكّ في صوابه ممن يرجع إلى مسكة من عقل، أو نصيب من إنصاف**، فمن أين يجب أن تثق بشيء ترجم لك على هذا الوصف؟"[٣]، فلم يبقَ لقائل بعد السيرافي في هذا الباب من مقال، فقد أوضح، وأوجز، وانتصر للعربية ونحوها بطريقة عقلية، أكثر جرأة، وأكثر إثارة للاهتمام، وأكثر جذبًا للمتلقين، وغايته من عرض هذه المتناقضات تسفيهُ آراء متّى وإبطالها، وإثبات جهله بالعربية التي يشرح بها كتب أرسطوطاليس على حد قوله.

وفي الجمع بين الثنائيات المتضادة: (التقديم، والتأخير)، و(الاستعارة، والحقيقة)، و(التشديد والتخفيف)، و(السعة والضيق)، و(النظم والنثر)، و(الاتزان، والميل) رد للمطاعن التي وجهها متّى للعربية ونحوها، فكيف له أن يقول: (يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف، فإني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها لي يونان)، هذا أمر ترفضه السليقة العربية والعقل المتزن، وربما كان حظ متّى بن يونس من فهم الأصول وفقهها أقل حظًا من الفهم بالفروع في منطقه، فهو أبعد عن الصواب،

(٣) الإمتاع والمؤانسة، ٩٤/١.

وليس من المستغرب أنه لا يجيد اللغة العربية، فالمقام يفرض على السيرافي الرد بلهجة أشد وقعًا، وأعظم تأثيرًا، فقال: (أنت إلى تعرّف اللغة العربيّة أحوج منك إلى تعرّف المعاني اليونانيّة ... فلم تُزري على العربيّة وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها، مع جهلك بحقيقتها؟)؛ تحقيرًا واستخفافًا بما يذهب إليه؛ وعليه فالاعتبار بمثل هذه الحجج مما يسترعي نظر الناظر فيها، فهي تُساهم بدرجة كبيرة في تحقيق الإقناع؛ للنهوض بمستوى التفكير، وتوجب التسليم عند أهل الرأي، فهي مما يحدث في النفس المتأملة أثرًا عاليًا. وتظهر براعة السيرافي في توظيف الأساليب المرشحة لأسلوب الطباق، كأسلوب السجع في توازن الكلمات واتفاقها على حرف واحد، وكأسلوب مراعاة النظير في إيثار الألفاظ التي تدل على ضعف متّى وشدة عوزه إلى الفهم والإدراك، كلفظ: (فقير، محتاج)، إذ أضفيا على النص نغمة موسيقية تخدم المعنى وتقود إليه، وتحقق التأثير في جمهور السامعين عامة، وفي نفس متّى خاصة؛ لشدة غفلته عن تدبر ماهيات العلوم، ولو تأمل لأدرك، ولكن غلبه الهوى، وتمكن منه الجهل، فتكلم على غير هدى، وحكم على غير مثال.

المسألة الثالثة: وردت هذه المسألة في نطاق حواري اتسم بحدة الانفعال بين السيرافي ومتّى؛ إذ أخذ السيرافي في عرض المسألة قائلًا: "دع هذا، هاهنا مسألة علاقتها بالمعنى العقليّ أكثر من علاقتها بالشكل اللّفظي، ما تقول في قول القائل: «زيد أفضل الإخوة»؟. قال متّى: صحيح. قال: فما تقول إن قال: «زيد أفضل إخوته»؟. قال متّى: صحيح. قال: فما الفرق بينهما مع الصّحّة؟. فبلح، وجنح، وغصّ بريقه"[(١)]، فالسياق أبان عن عجز متّى، وضعف فهمه، وقلة إدراكه، وهذا ما جعل السيرافي يرد عليه قائلًا: "أفتيت على غير بصيرة، ولا استبانة، **المسألة الأولى جوابك عنها صحيح، وإن كنت غافلًا عن وجه صحّتها، والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح، وإن كنت أيضًا ذاهلًا عن وجه بطلانها)**، فقابل بين (المسألة الأولى) و(المسألة الثانية)، وبين (جوابك صحيح) و(جوابك غير صحيح)، وبين (وجه صحتها) و(وجه بطلانها)، وفي هذا ما ينفي عن متّى صفة العلم، ويثبت له صفة الجهل، ويعزز من غياب متطلبات العلم لديه، من: إجالة الفكر، وإعمال العقل، وحضور الذهن، وفيه –أيضًا– تعريض بجهل متّى، وغفلته عن إدراك مسائل النحو العربي، وحققت المقابلة اتساقًا، وائتلافًا، وتأثيرًا؛ لكونها أقدر في فرض الإقناع العقلي من جانب، والتأثير النفسي من جانب آخر. ومما زاد من حسنها في السياق اختيار لفظي: (غافلًا) و(ذاهلًا)، فالغفلة والذهول من أشد آفات العلم ضررًا، ويستحيل اجتماعهما؛ لأن الذهول عدم استثبات المسألة حيرة ودهشة[(٢)]، والغفلة ترك الشيء

(١) المرجع السابق، ٩٥/١.
(٢) ينظر: مقاييس اللغة، ٣٦٣/٢.

نسيانًا وعمدًا[١]، وكلاهما موجبان للجهل. ومما زاد من قوة المعنى إيثار السجع في أواخر الفقرات؛ إذ جاء بطريقة عفوية أكسبت الكلام رونقًا وبهاءً.

القضية الرابعة: التبصر والإدراك جوهر الفكر المتأني:

في هذه القضية تتضح شخصية السيرافي العقلية؛ إذ يضع ثوابت علمية عقلية لمناقشة الأمور واستبانة حقائقها، حيث اعتماد الصواب، والحق، والصدق، والاتفاق، وتجنب الخطأ، والباطل، والكذب، والاختلاف. ومن النصوص الدالة على ذلك ما يأتي:

لقد افتتح السيرافي المناظرة بأسلوب تقريري عن طريق التساؤل؛ رغبة في شدّ أذهان الحاضرين، وإعلامهم بحقيقة ما جاء به متّى بن يونس، فقال: "حدّثني عن المنطق ما تعني به؟، فإنا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في **قبول صوابه، وردّ خطئه**، على سنن مرضيّ، وطريقة معروفة"[٢]، فقابل بين لفظي: (القبول) و(الرد)، وبين لفظي: (الصواب) و(الخطأ)، وأثبت لمتّى إثباتًا قاطعًا بالدليل العقلي معيار الأخذ والرد من حديثه عن المنطق، فإن الأولى والأهم في إزالة اللبس وتحقيق المراد هو: قبول الصواب، ورد الخطأ، على سنن مرضي، وطريقة معروفة، وهذا مما تعارف العقل عليه في مبدأ الأخذ والرد في جميع المجالات؛ لذا خاطب متّى بحجة ناصعة، وبرهان بين، وعرض المعنى في وضوح وجمال. وفي موضع آخر –قريب من هذا في دلالة المعنى– قال معارضًا متّى: (فمن أين يلزم التّرك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه، ويتخذوه قاضيًا وحكمًا لهم وعليهم، **ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكره رفضوه؟**)، فقابل بين لفظي: (شهد) و(أنكر)، وبين لفظي: (قبل) و(رفض)، ولكن السيرافي هنا أعطى المعنى حركة واسعة داخل السياق؛ ليدرك الناظر المتأمل أن مجموع الأساليب –من الاستفهام، والطباق، ومراعاة النظير– تآزرت مع بعضها البعض لتقوية المراد، وهو: إثبات حقيقة الاختلاف بين ثقافة متّى وبين ثقافات الأمم الأخرى، فمبدأ القبول والرفض بينها هو اتزان العقل وتحكيمه، في قبول ما يعود بالنفع، ورفض ما يعود بالضرر، فإن الطباق في (لهم) أفاد معنى المنفعة، وفي (عليهم) أفاد معنى المضرة، ومراعاة النظير في (الترك، والهند، والفرس، والعرب) أفاد تعميم مبدأ القبول والرفض عند جميع الأمم، وفي (قاضيًا، وحكمًا) أفاد وجوب الأخذ به والاحتكام إليه، ومما زاد في حدة الانفعال مجيء الاستفهام في (فمن أين يلزم ...)، فأفاد شدة التوبيخ، وقوة الإنكار، فاندماج هذه الأساليب أضاف للنص قدرًا عاليًا من الحسن والجمال، وهذا مما يرشح المقابلة ويقويها لأداء وظيفة الإقناع العقلي؛ بغية التسليم المطلق بما

---

(١) ينظر: المرجع السابق، ٣٨٦/٤.
(٢) الإمتاع والمؤانسة، ٩٠/١

يرتضيه منطق العقل ومقتضى الحال في تحقيق العلوم والمعارف.

وفي موضع آخر يقول ردًّا على متّى -في سياق تعليم النحو من خلال عرض الشواهد، والأمثلة، والتساؤلات-: "معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير، **وتوخّي الصواب في ذلك، وتجنّب الخطأ من ذلك**"[(١)]، فقابل بين لفظي: (توخّي) بمعنى: طلب، و(تجنب) بمعنى: ابتعد، وبين لفظي: (الصواب) و(الخطأ)، وبين الحرفين: (في) و(من)، فالبرهنة على الفرضيات السابقة جعلت السيرافي يعمد إلى توظيف أسلوب صحة التقسيم في قوله: (معاني النحو منقسمة بين كذا وكذا وكذا)، فأحاط وفصّل من أجل ترجيح الصواب على خلافه، وهذا المعنى تأكد بصورة أكثر وضوحًا في توظيف أسلوب المقابلة، فإن فيه ما يؤكد حقيقة طلب الصواب وقصده في جميع المعاني النحوية، والابتعاد عن الخطأ وتجنبه في بعض المعاني النحو، فإن الحرف (في) ذو دلالة على جوهر الشيء وباطنه، والحرف (من) ذو دلالة على ظاهر الشيء وجزء منه، وهذا وجه من وجوه فهم المعنى، والسيرافي يبحث عن الوسائل التي يحصل بها إقناع متّى وجمهور المتلقين؛ حيث التنبيه على ضرورة مهمة من ضرورات فهم العلم وإفهامه.

وفي سياق مناقشة القضايا والمسائل النحوية وجّه السيرافي إلى متّى معارضة ومناقضة؛ إذ يقول: "فقد بان الآن أنّ مركّب اللفظ لا يُحَوز مبسوط العقل، والمعاني معقولة، ولها اتّصال شديد وبساطة تامّة، وليس في قوّة اللفظ من أيّ لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به، وينصب عليه سورًا، **ولا يدع شيئًا من داخله أن يخرج، ولا شيئًا من خارجه أن يدخل؛ خوفًا من الاختلاط الجالب للفساد، أعني: أنّ ذلك يخلط الحقّ بالباطل، ويشبّه الباطل بالحقّ، وهذا الذي وقع الصحيح منه في الأوّل قبل وضع المنطق، وقد عاد ذلك الصحيح في الثاني بعد المنطق**، وأنت لو عرفت تصرّف العلماء والفقهاء في مسائلهم، ووقفت على غورهم في نظرهم، وغوصهم في استنباطهم، وحسن تأويلهم لما يرد عليهم، وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة، والكنايات المفيدة، والجهات القريبة والبعيدة، لحقّرت نفسك، وازدريت أصحابك"[(٢)]. فقابل بين ست مفردات معتمدًا فيها على العقل في الربط بين المتوافقات بطريق التضاد، فالجملة الأول: **(ولا يدع شيئًا من داخله أن يخرج، ولا شيئًا من خارجه أن يدخل)**، فقابل جملة: (من داخلة) بـ(من خارجه)، ثم عاد فقابل جملة: (أن يخرج)، بـ(أن يدخل)، مبينًا هيئتين متضادتين من جانب الألفاظ، متناسبتين من جانب المعاني، وهذا

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٩٦/١.

(٢) المرجع السابق، ٩٩/١.

التوازن والانسجام أفاد أهمية ضبط المسائل، والحذر في مناقشتها؛ خوفًا من الاختلاط الجالب للفساد. والجملة الثانية: (أنّ ذلك يخلط الحقّ بالباطل، ويشبّه الباطل بالحقّ)، فقابل لفظ: (الحق) بـ(الباطل)، ثم عاد وقابل لفظ: (الباطل) بـ(الحق)؛ تأكيدًا على أهمية الجملة الأولى، وفي هذا ما يرشد إلى أهمية التبصر بحذر وتيقظ شديدين في قضية الفساد في مناقشة الأمور والمزج بين القضايا المختلفة. والجملة الثالثة: (وقع الصحيح منه في الأوّل قبل وضع المنطق، وقد عاد ذلك الصحيح في الثاني بعد المنطق)، فقابل بين لفظي: (الأول) و(الثاني)، وبين لفظي: (قبل) و(بعد).

فالمقابلة في الجمل الثلاث متسقة الألفاظ، مترابطة الأجزاء، فتوالي المتناقضات في السياق حقق ضربًا من الإقناع؛ بغية إفهام متّى بن يونس بحقائق مهمة غاب عنها فهمه، وقصر عنها إدراكه، الأولى: أن الغفلة تهدم العلم وتفسده، والثانية: أن التعصب مضر يفسد العقول، فيصير الباطل حقًّا، والصواب خطأً، وقد اتضح بالدليل غفلة في مناقشة المسائل النحوية، فإن مهمة تصحيح الأمور ومعالجتها وتوجيهها يتطلب أساسًا قويمًا يُرتكز عليه. وقد استعان السيرافي بالضمائر في قوله: (وأنت لو عرفت ... ووقفت ... لحقّرت نفسك، وازدريت أصحابك)، وفي هذا تأكيد لمتّى بحقيقة جهله، وخطأ اعتقاده، وبطلان آرائه، فيما يدعو إليه من علم المنطق. ومما أسهم في ثراء المعنى توظيف السجع؛ إذ أتت الألفاظ المزدوجة مسجوعة، كقوله: (غورهم في نظرهم، وغوصهم في استنباطهم، وحسن تأويلهم لما يرد عليهم)، وفي: (لحقّرت نفسك، وازدريت أصحابك)، وفي: (المحتملة، المفيدة، البعيدة)، وتوظيف جناس المضارع في: (غورهم، غوصهم)؛ لقرب مخرج حرفي الراء والصاد، وتوظيف طباق الإيجاب في قوله: (مركب) و(مبسوط)، وفي قوله: (الجهات القريبة والبعيدة)، فالألفاظ المتضادة أفادت تأكيد مبدأ الإحاطة والشمول في معالجة المسائل النحوية.

وفي سياق المحاجة والمعارضة يقول السيرافي: "لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البيّنة في أربعة وأربعة وأنّهما ثمانية، **زال الاختلاف، وحضر الاتفاق**، ولكن ليس الأمر هكذا، ولقد موّهت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التمويه"[١]، فقابل بين لفظي: (زال) و(حضر)، وبين لفظي: (الاختلاف) و(الاتفاق)، وهذا من باب التوبيخ الشديد لمتّى، فالسيرافي ينكر عليه قلة علمه، وقوة مكره، وهذه حيلة من حيل تدليس العلوم، فإذا كان ظاهر الأمر في أن أربعة وأربعة ثمانية عند جميع الأمم، فإن البحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة يختلف ويتباين عند جميع الأمم،

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٩١/١.

وهذه قضية جوهرية في تحصيل المعارف والعلوم عند جميع الأمم، أبرزها السيرافي من خلال حسن توظيف المقابلة في سياق المعارضة والمحاجة. ومما زاد في ثراء المعنى أسلوب السجع في لفظ: (المختلفة، المتباينة، البينة، أربعة، ثمانية، التمويه)، وأسلوب تأكيد الذم بما يشبه المدح في: (ولقد موّهت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التمويه)؛ ليقوي من حضور شخصية السيرافي البلاغية، وحسن توظيفه لما يخدم المقام من قوة البراهين العقلية، وهذا سبيل من سبل الإقناع العقلي والإمتاع النفسي لا غنى عنه.

المطلب الثاني: مراعاة النظير وأثرها في التوجية الحجاجي.

إن من خصائص الخطاب الحجاجي مراعاة التناسب بين المعاني، وهذا يظهر جليًّا في نص المناظرة؛ إذ لجأ السيرافي –بشكل ملحوظ– إلى توظيف جملة من المفردات المتوافقة المتآلفة توظيفًا بلاغيًّا يستدعيه سياق التحاور، فسطعت الحجج في المقامات والأحوال التي تقتضي البيان والإفصاح، فأنشأ الكلام إنشاءً جيدًا، وسبكه سبكًا متلاحمًا، وأفرغه إفراغًا محكمًا؛ لإحراز الغرض المراد بطريقة أيسر على المتلقي، وهي طريقة الإقناع دون تكلف أو التباس.

وحد مراعاة النظير عند جمهور البلاغيين[١]:

الجمع بين الأمور المتناسبة بغير التضاد، وهو لون من ألوان البديع المعنوية، يسمى بالتناسب، والتوفيق، والائتلاف، والتلفيق، والمؤاخاة[٢]، وهذا اللون يتطلب قدرة ذهنية لغوية عالية، فـ"تخيّر الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام، وهو من أحسن نعوته، وأزين صفاته، فإن أمكن مع ذلك منظومًا من حروف سهلة المخارج كان أحسن له، وأدعى للقلوب إليه ... فكان جامعًا للحسن، بارعًا في الفضل ... قد جمع نهاية الحسن، وبلغ أعلى مراتب التمام"[٣].

ومما يلفت الانتباه في هذا الشأن امتزاج حدة الذكاء بقوة الفصاحة وحسن البيان عند السيرافي؛ حيث البراعة في اختيار مجموعة متآخية من الألفاظ الدلالية التي بها يحصل البيان، ويثبت الإقناع، ويتحقق الإمتاع، وهذا اللون من البلاغة جاء لتأصيل النظر في قضية مهمة، وهي: أن الحث على التبصر والتأمل في جوهر المعاني المتآلفة في نسجها وترتيبها، وضم بعضها إلى بعض؛ طريق من طرق الفكر في قبول الحجج ورفضها بما يلائم

(١) ينظر: المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (٧٩٢هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ–٢٠٠١م)، =

= ص٦٤٤؛ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي السبكي (٧٧٣هـ)، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٧١م)، ٤٠٦/٤؛ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي (٩٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، (بيروت: عالم الكتب)، ٢٣٠/٢؛ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب المغربي (١١٢٨هـ)، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية)، ص٤٩٨؛ بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ٥٨٣/٣.

(٢) ينظر: المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، ص٦٤٤.

(٣) الصناعتين، ص١٤١.

مقتضى الحال.

أولاً: ما يتعلق بالعمليات العقلية:

يقول السيرافي في افتتاح المناظرة: "فإن العلم المصون في الصدر غير العلم المعروض في هذا المجلس على **الأسماع** المُصيخة، **والعيون** المحدِقة، **والعقول** الحادّة، **والألباب** الناقدة؛ لأن هذا يستصحب الهيبة، والهيبة مكسرة، ويجتلب الحياء، والحياء مغلبة، وليس البراز في معركة خاصّة كالمصاع في بقعة عامّة"[١].

وهنا عمد السيرافي إلى توظيف طريقة تعبيرية مناسبة لمخاطبة الوزير، فأعطى المقام حقه من الشرح والبيان؛ إذ أبان عن جوهر الاختلاف والافتراق بين علمي النحو العربي والمنطق اليوناني، ولشدة التباين والافتراق فإن الأسماع، والعيون، والعقول، والألباب تدرك من الوهلة الأولى مقدار البون الشاسع، فالعلم الأول –علم النحو– مصون محفوظ، ممزوج بالهيبة، محاط بالتعظيم، والعلم الثاني –علم المنطق– معرض للنقص والإهمال، ممزوج بالامتهان، محاط بالتحقير، وهذا مستفاد من المقابلة بين (العلم المصون في الصدر، غير العلم المعروض في المجلس)، فقابل ثلاثة بثلاثة (العلم، المصون، الصدور) في مقابلة (غير العلم، المعروض، المجلس)، ومما زاد في جمال العبارة أنه عمد إلى المناسبة في الجمع بين (الأسماع، والعيون، والعقول، والألباب)، ثم قرن كل أداة من أدوات العلم والإدراك بوظائفها الملائمة لها في السياق، فالأسماع منصتة، والعيون شديدة التأمل، والعقول تمنع قبول الزلل، والألباب تفطن باليقظة مكامن الحسن والقبح، والغاية من التناسب والائتلاف توضيح المفاتيح الأساسية، ودورها المتكامل في تحقق المعرفة، وبلوغ العلم، ولا شك في إن البيان في مثل هذا المقام يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى إيجاز وحسن إبانة[٢].

ومما يزيد الكلام حسنًا تساند الأساليب وتضافرها في حصول المنفعة، وتحقق التأثير، كأسلوب السجع في لفظ: (مصخية، محدقة، حادة، ناقدة)، وفي لفظ: (مكسرة، مغلبة، خاصة، عامة)، وكأسلوب المقابلة في: (وليس البراز في معركة خاصة، كالمصاع في بقعة عامة)، فقابل بين (البراز، المصاع) فهي بمعنى الخروج والقتال، ثم قابل بين (في معركة، في بقعة) ففيها معنى الضيق والاتساع، ثم قابل بين (خاصة، عامة)، فالسيرافي يعلم يقينًا بما يدور في مخيلة خصمه من اعتراضات واختلافات حول علم النحو العربي؛ لذا وظف لونًا آخر من الحجج العقلية أكثر وضوحًا، وأشد بيانًا، يقول: "ومع هذا فالاختلاف في **الرأي والنظر والبحث**

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٩٠/١.

(٢) البيان والتبيين، ص٣٦.

والمسألة والجواب سنخ وطبيعة، فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف، أو يحلحله، أو يؤثّر فيه؟، هيهات هذا محال، ولقد بقي العالم بعد منطقه على ما كان عليه قبل منطقه"[١]، فهذا النص بليغ في صياغته، متألق في نظم مفرداته، وفي كيفية ارتباطها وترتيبها، منسوج بأسلوب محكم، رُكبت فيه الحجج بطريقة مخصوصة، كطريقة أسلوب مراعاة النظير في بيان حقيقة الاختلاف في كيفيات تأويل المعارف، واستنباط العلوم في جميع مجالات العلم، فالاختلاف أصل وطبيعة في: (الرأي، والنظر، والبحث، والمسألة، الجواب)، وهذا الجمع المتآخي بين المفردات ليدل دلالة قاطعة على أن العالم أحوج ما يكون إلى إتقان مقومات وأساسيات القول في العلم، ثم عاد فجمع بين (التحاور، والتجاري، والتدارس، والشرح)، وتلك آليات أساسية لنقل العلم والمعرفة، يجب الأخذ بها في باب نقل العلوم والثقافات، وغاية السيرافي إعلام جمهور السامعين بأن تلك المقومات والآليات لم تثمر جدوى في علم متّى، فلو صرف فكره لتعلم لغة يونان ومنطق يونان لعلم أنه في غنى عن معاني يونان ولغتها، فكيف له بالنظر في علم العربية ونحوها.

ومن القيم الحجاجية في هذا السياق: توظيف الاستفهام الإنكاري في: (فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف، أو يحلحله، أو يؤثر فيه؟)، ثم التعجب في: (هيهات هذا محال!)، ثم الطباق الإيجاب في: (يرفع، يحلحل)، وفي: (بعد، قبل)، وهذه المزايا بمثابة الضابط في توجيه الحجة العقلية وتأكيدها؛ ليكون الإقناع أشد، والإمتاع أبين.

والمناظرة تقوم في أصلها على العقل المتمثل في القدرة على الاستنتاج والمحاكمة المنطقية، وعن طبيعة اللغة المستخدمة يحسن مراعاة طريقة عرض الأفكار، وقوة الحجج وتماسكها المنطقي[٢]؛ ولهذا فإن السيرافي على دراية تامة بكل ما من شأنه أن يقوي الجانب العقلي داخل السياق؛ لأن الثوابت العقلية من (النظر، والملاحظة، والتأمل، والتعقل) تمنع العشوائية، وتحد من الزلل على نحو تأصيلي فريد، والغاية الأسمى تكمن في أن التعقل في سوس العلوم والمعارف، وبناء العقل بناء علميًّا، فكريًّا، سليمًا، بعيدًا عن التعصب؛ لكونه أداة التميز بين الصواب والخطأ، والحق والباطل، والخير والشر، فإن حصل لمتّى بن يونس التأمل والتفكر والإدراك حصل الإقناع، ووجب توظيف هذه العمليات توظيفًا يخدم العقل في استظهار الحقائق، يقول السيرافي: "إن المعاني حاصلة بالعقل، والفحص، والفكر"[٣]، ثم يقول: "حالي في **معرفة** الحقائق، **والتصفح** لها، **والبحث** عنها، حال قوم كانوا قبل واضع المنطق، **أنظر كما نظروا، وأتدبّر كما تدبّروا**؛ لأنّ اللغة قد عرفتها بالمنشأ والوراثة، والمعاني نقّرت عنها **بالنظر**،

(١) الإمتاع والمؤانسة، ٩٢/١.

(٢) ينظر: المنظرة في الأدب العربي – الإسلامي، ص٩٣- ٩٧.
(٣) الإمتاع والمؤانسة، ٩٤/١.

والرأي، والاعتقاب، والاجتهاد"[١]، والغاية من الإشادة بمثل هذه الثوابت: الكشف عن المنهجية الصحيحة في نقل العلوم، والحكم عليها من منظور عقلي يعصمها من التعصب، ويوجهها نحو الصواب؛ ولهذا وظف السيرافي أسلوب مراعاة النظير توظيفًا جيدًا في مقام مخاطبة العقل، توظيفه لما خلق له من التأمل والتفكر والبحث، وتلك ركيزة من ركائز تحصيل المعارف والعلوم، بها ينمو التفكير السليم، والاعتقاد الصحيح، وصنع الآراء والقرارات بصورة صائبة، فكل عملية عقلية من معرفة، وتصفح، ونظر، واعتقاب، واجتهاد، هي ملازمة لأختها، معتمدة عليها، لا تنفك عنها، ولا بدّ للمتكلم "من اللفظ الّذي يشتمل على **مراده**، ويكون طباقًا **لغرضه**، وموافقًا **لقصده**"[٢]؛ حتى يحصل الفهم الجيد، فينفذ المعنى المراد إلى العقل والقلب، فيبلغ غايته من الإقناع العقلي، والتأثير العاطفي.

والسيرافي يجتهد لجلب فكر السامعين خصوصًا متّى بن يونس؛ ليكون أكثر اندهاشًا واستغرابًا، وأشد تزلزلًا واضطرابًا؛ لشدة وقع المعاني عليه، فالتبكيت تارة، والتحقير أخرى، "وهذه كلّها خرافات وتزّهات، ومغالق وشبكات"[٣]، فليس هناك تلطف في مناقشة الحقائق، وإنما بيان فصل يحقق حضور المنفعة وحصولها، و"كل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة ... والكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع"[٤].

ولا شك فالسيرافي –بدراية وفطنة– يعرف منافذ الرد على متّى، فأوصل حديثه معرضًا بجهله وغفلته، وقصور طاقاته العقلية عن إدراك المراد، فيقول: "ومن جاد عقله، وحسن تمييزه، ولطف نظره، وثقب رأيه، وأنارت نفسه، استغنى عن هذا كلّه –بعون الله وفضله–، **وجودة العقل، وحسن التمييز، ولطف النظر، وثقوب الرأي، وإنارة النفس** من منائح الله الهنيّة، ومواهبه السنيّة، يختصّ بها من يشاء من عباده"[٥]، فقد ضم الكلمات (الجودة، والحسن، واللطف، والثقوب، والإنارة) إلى بعضها البعض، ثم عاد ثانية فضم (العقل، والتمييز، والنظر، والرأي، والنفس) إلى بعضها البعض بطريقة مراعاة النظير، فالألفاظ هنا متخيرة، والمعاني منتجة؛ ليظهر أن تواليها وتتابعها إنما جاء ليؤكد عظيم ما عليه العلماء من منهجية راجحة صحيحة في إظهار مقادير العلوم والمعارف من جهة، وتأكيد حقارة ما عليه متّى من فساد، وفسالة، وسخف، وضعف، وركاكة من جهة

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق، ٩٦/١.
(٣) الإمتاع والمؤانسة، ٩٨/١.
(٤) البيان والتبيين، ص٤٠.
(٥) الإمتاع والمؤانسة، ٩٨/١.

أخرى[١]، وهذا أسلوب يدعو إلى الإقناع، والاستمالة، والتوجيه نحو الصواب، ومما يجلب الاستمالة – أيضًا– توظيف أسلوب السجع في: (خرافات، تراهات، شبكات)، وتوظيف أسلوب الجناس اللاحق؛ حيث تباعد الحروف في (الهنية، السنية)، وهذه الأساليب مما جعلت المعنى أكثر وضوحًا والتصاقًا بقلب متّى بن يونس وجمهور المتلقين؛ لما حققته من مزية أسلوبية أبرزت التحام الكلام وأخذ بعضه بربقة بعض.

وفي موضع آخر يقول السيرافي: "أنت إذًا لست تدعونا إلى علم المنطق، إنما تدعو إلى تعلم اللغة **اليونانيّة**، وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها؟، وقد **عفت** منذ زمان طويل، و**باد** أهلها، و**انقرض** القوم الّذين كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها"[٢]. فاجتمع في السياق وضوح الدلالة، وجمال العبارة، ومرجع ذلك إلى التوافق والتناغم في توظيف البديع توظيفًا يستثير المتلقي، ويحفز عقله، ويدعوه إلى التنبه، فمن بلاغة السيرافي أنه أتى بجملة من ألوان البديع تسعى مجتمعة لتكشف مزاعم متّى في حديث المنطق؛ لإبطالها، وهدمها، فجمع بين الاستدلال العقلي المنطقي والقوة والجزالة، وجاء بالتناسب في إن (العلم) و(التعلم) و(المعرفة) من باب واحد، فهي نتاج العقول المحصلة المستنيرة، وأن فهم الحقائق وإدراكها لا يكون إلا بالمعرفة والتعلم الذي ينمي العقول والألباب، وهو مقصد السيرافي من قوله: (فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها؟، وقد عفت منذ زمان طويل، وباد أهلها، وانقرض القوم الّذين كانوا يتفاوضون بها) على طريقة أهل الكلام في إثبات البراهين العقلية، ومعيار التوازن في الجمع بين (عفت، بادت، انقرضت) وهي ألفاظ متناسبة تن ما يذهب إليه متى بن يونس في منطقه الذي يدعا إليه. ونلمح من النص السابق أن السيرافي جاء بالجناس الناقص في: (علم) و(تعلم)، والناقص المطرف في: (تدعونا) و(تدعو)، والسجع في: (يتفاوضون) و(يتفاهمون)؛ من أجل تحقيق انسجام أصوات الكلمات ومدلولاتها في جو المناظرة.

ثانيًا: ما يتعلق بالموضوعات:

لقد وظف السيرافي أسلوب مراعاة النظير توظيفًا فكريًا، فاستولى بالدليل القاطع، والبرهان الناصع على فكر متّى وجمهور المتلقين، وهذا دليل حضور البديهة، وحدة الذكاء في فهم حقائق الأشياء، والنظر في دواخلها، فلو نظر متّى إلى حجة واحدة بمنطق العقل المتدبر؛ لإدرك الخلل التي دفعته إلى إعلاء شأن المنطق نظير هدم المعارف والعلوم الأخرى، وهذا الشأن مما أخرجه عن حد الحكمة والتعقل في تبصر جواهر الأمور، يقول السيرافي مستنكرًا جهله بأيسر الأمور: "إذا كانت الأغراض المعقولة، والمعاني المدركة، لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة **للأسماء، والأفعال، والحروف**، أفليس قد لزمت الحاجة إلى معرفة اللغة؟. قال: نعم. قال:

(١) المرجع السابق، ١/١٠٠.
(٢) المرجع السابق، ١/٩٠، ٩١.

أخطأت، قل في هذا الموضع: بلى"[١]، وهذا مما لا يقع الاختلاف في تحصيله؛ لكونه متقررًا بالعقل، حاضرًا بالبديهة، واقتران مراعاة النظير الاستفهام الإنكاري في (أفليس قد لزمت الحاجة ...) أضاف للمعنى فائدة معنوية؛ لأن الجمع بين (الأفعال، والأسماء، والحروف) في هذا السياق ينبئ عن أهمية إدراكها مجتمعة في تحصيل المطلوب، ومما زاد في قوة السياق أسلوب الحوار؛ إذ الآذان إليه أنصت، والقلوب إليه أميل، والعقول إليه أقدر، فالمنفعة العظمى تمثلت في إعلام متّى بالصواب، وإعلام الجمهور بغفلة متّى عن إدراك الصواب، وفي هذا تشهير بغفلة متّى، فلا يجديه نفع إلا باستنكار جهله، واستحقار علمه. والسيرافي أظهره بمظهر الجاهل، وقد وجه له كلمة (أخطأت) عدة مرات؛ ليدل على ضيق المعرفة ومحدوديتها، والتمويه والخداع على عادة المنطقيين[٢].

وفي موضع آخر أراد السيرافي أن يُوقظ متّى من غفلة الجهل، إذ وجه التساؤلات بفطنة ودراية قائلًا: "أسألك عن حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميزة عند أهل العقل، فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطوطاليس الذي تُدِل به وتباهي بتفخيمه، وهو (الواو)، ما أحكامه؟، وكيف مواقعه؟، وهل هو على وجه أو وجوه؟، فبهت متّى وقال: هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه ... قال السيرافي: أخطأت؛ لأن **الكلام**، **والنطق**، **واللغة**، **واللفظ**، **والإفصاح**، **والإعراب**، **والإبانة**، **والحديث**، **والإخبار**، **والاستخبار**، **والعرض**، **والتّمنّي**، **والنهي**، **والحضّ**، **والدعاء**، **والنداء**، **والطلب**، كلّها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة"[٣]، وهنا ينبغي أن يكون إقبال السامعين للإنصات أشد؛ لأن المعاني أبين، والحجج أوضح، وغاية السيرافي تقويم الانحراف العقلي والفكري لدى متّى، وتوجيه المسائل توجيهًا صحيحًا دون تدليس ولا تلبيس؛ لذا عاد مؤكدًا لمتّى أنه في غفلة مستديمة، وجهل متمكن، وعقل متأزم، وعلم مسلوب، فقال: "ما وجدنا لكم إلّا ما استعرتم من لغة العرب **كالسبب**، **والآلة**، **والسّلب**، **والإيجاب**، **والموضوع**، **والمحمول**، **والكون**، **والفساد**، **والمهمل**، **والمحصور**، وأمثلة لا تنفع ولا تجدي"[٤]، "وغايتكم أن تهوّلوا **بالجنس**، **والنوع**، **والخاصّة**، **والفصل**، **والعرض**، **والشخص**، وتقولوا: **الهليّة**، **والأينيّة**، **والماهيّة**، **والكيفيّة**، **والكميّة**، **والذاتيّة**، **والعرضيّة**، **والجوهريّة**، **والهيوليّة**، **والصورية**، **والأيسية**، **والليسيّة**، **والنفسيّة**؟"[٥]، وغايتكم التهويل والإفراط دون اعتبار ولا اتعاظ، وهذا حال جاهل مفرط يدعي علم ما لا يعلم، وغايتنا إزالة اللبس، وكشف الفساد،

---

(١) الإمتاع والمؤانسة، ١/٩٠، ٩١.
(٢) ينظر: المناظرة في الأدب العربي – الإسلامي، ص١٦٤.
(٣) الإمتاع والمؤانسة، ١/٩٣.
(٤) المرجع السابق، ١/٩٧.
(٥) المرجع السابق، ١/٩٨.

وتوضيح المبهم، وبيان الخطأ، وإبراز الضعف، وإسكات الخصم؛ رغبة في تحقيق الإقناع والاندهاش لاستلهام الصواب، وإحقاق الحقائق المنغمسة في حيز التحريف والتضليل، فليس لكم في موضوعات النحو من الإضافة، والبدل، والمعرفة، والنكرة مقال، ولا مجال[١].

ثالثًا: ما يتعلق بالمدركات الحسية:

إن الجمع بين الألفاظ المدركة بالحس من أفضل طرق بلوغ الغاية في تحقيق خاصية التبليغ العقلي والتأثير النفسي، يقول السيرافي: "وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن، فمن لك بمعرفة الموزون أيّما هو **حديد، أو ذهب، أو شَبَه، أو رصاص؟**، فأراك بعد معرفة الوزن فقيرًا إلى معرفة جوهر الموزون ... ليس كلّ ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما **يوزن**، وفيها ما **يكال**، وفيها ما **يذرع**، وفيها ما **يمسح**، وفيها ما **يحزر**"[٢]، فبين (الحديد، والذهب، والنحاس، والرصاص) مراعاة نظير؛ لكونها من أصناف المعادن التي توزن، ولكل صنف وزن خاص، وفي (الميزان، والمكيال، والذرع، والمسح، والحزر) مراعاة نظير؛ لكونها أصناف لمقادير الأشياء وقياسها، فهناك من الأشياء ما يقدر ويقاس إما بميزان، أو مكيال، أو ذراع، أو يد، أو بتخمين وحدس، فالسيرافي يثبت الاستدلالات العقلية الإدراكية بطريقة حسية مرئية، وهذا أقوى في إثبات جهل متّى بجوهر علم المنطق، وفيه تعريض لاذع عن طريق الاستفهام؛ لعدم معرفته بجوهر وحقيقة العلم الذي يدعا إليه، فكيف له أن يجعل المنطق آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسده من صالحه، والذي ينبغي أن يُعلم هو أن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المألوف والإعراب المعروف، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل[٣].

رابعًا: ما يتعلق بالأمم واللغات:

يعدّ الربط بين الألفاظ الدلالية في هذا السياق مقياسًا صائبًا يبرهن على جودة الحجج، وقوتها، ورجحانها، ويحقق لجمهور السامعين خاصية الإقناع العقلي الباعث على: التقويم، والإصلاح، والتوجيه، وهذه غاية أساسية في سياق المحاجة، لا تتحقق بصورة جيدة فاعلة إلا من خلال براعة الجمع بين الأمور المتناسبة، وحسن توظيفها بما يناسب السياق والمقام، ومن أمثلة هذا النوع من الجمع بين المتناسبات قول السيرافي مستنكرًا ومحقرًا لفساد العقل، وبطلان الرأي في هدم موازين اللغات الثابتة: "فمن أين يلزم **التّرك والهند والفرس والعرب** أن ينظروا فيه، ويتخذوه قاضيًا وحكمًا لهم وعليهم؟"[٤]، وقوله في موضع آخر: "فماذا تقول في معان متحولة بالنقل من لغة **يونان** إلى لغة أخرى **سريانية**، ثم من هذه إلى أخرى **عربية**؟ ... أنت إلى تعرّف اللغة

(١) ينظر: المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق، ١/٩٠، ٩١.
(٣) الإمتاع والمؤانسة، ١/٩٠، ٩١.
(٤) المرجع السابق.

العربيّة أحوج منك إلى تعرّف المعاني اليونانيّة، على أنّ المعاني لا تكون **يونانيّة، ولا هنديّة**، كما أنّ اللغات تكون **فارسيّة، وعربيّة، وتركيّة**"[١]. ولاشك فالحاجة ماسة إلى نشر مثل هذه التساؤلات في سياق المناظرة وإذاعتها لجمهور السامعين بطريق التآلف والتآخي بين المفردات؛ رغبة في إيضاح القصور الفكري عند متّى خصوصًا في معالجة قضايا العلم، وفرض المنطق اليوناني في كل باب من أبوابها، وفي الجمع بين لفظ (الترك، العرب، الفرس)، (يونانية، سريانية، عربية، هندية، فارسية، تركية) مبررات علمية، ودواعي فكرية، أراد بها التوجيه نحو الصواب الذي استعصى على متّى إدراكه بسبب التعصب تجاه منطق يونان، وفي الإصغاء إلى الاستفهام في (فمن أين يلزم ...) تنبيه وإيقاظ من جانب، وإعلام بلُوم متّى وبسفهه في الخلط بين العلوم من جانب ثانٍ، واستنكار لصنيعه في إلغاء ماهيات اللغات، وتجاهل أصولها، وهدم هيبتها من أجل تمجيد منطق يونان ثالث. وثمرة أسلوب مراعاة النظير في الجمع بين أسماء اللغات والأمم إنما هو لاستنطاق الصواب، ولبيان الخلل والفساد في الخلط بين العلوم، وهذا مما يدرك بالعقل، ومتّى بن يونس في غفلة عنه؛ لأن شدة تعصبه وفرط ميله لمنطق يونان وثقافة يونان مما عطل عقله عن التمييز، وألغى فكره عن التعقل، وهذا ما أراد السيرافي بيانه، وتأكيده، وتجليته أمام جمهور المتلقين؛ ليكون أشد في الردع، وأقوى في التبكيت.

الخاتمة

- وقف أبو سعيد السيرافي –في هذه المناظرة– على دقائق الكلام، حيث الجمع بين الحسن، والجودة، والإبداع في نسج المعاني وتكوينها، فصاغ الحجج الصارمة، والبراهين القاطعة، والدلائل النيرة، وفق أساس علمي عقلي راجح يستند إليه متّى بن يونس في استرجاع ما جاء به من منطق وفلسفة يونانية؛ حتى لا تَطلق الأمور حسب متطلبات التعصب بغير حجة بينة، بل حسب مقتضيات العقل من نظر، وملاحظة، وتأمل، وتعقل.

- إن القيم الحجاجية للطباق، والمقابلة، ومراعاة النظير، أسهمت بشكل فاعل في نمو المعاني العقلية من خلال أمرين، أولهما: تحقيق التأثير، والاستمالة، وكسب تأييد المتلقي، ثانيهما: تحقيق الإقناع، وإلزام الحجة، وإزالة اللبس، وهذا لب البلاغة وجوهرها، فكل أسلوب –منهما– بمثابة أداة فنية، وآلة بلاغية، تعملان على توليد طاقات حجاجية أكثر قوة، وأعمق دلالة، وأشد تماسكًا، وأبين جمالًا.

- تُعد مناظرة السيرافي مدونة علمية كشفت أخطاء متّى بن يونس ومخاطره على العربية، وعالجت قضايا جوهرية بمنطق العقل البلاغي،

(١) المرجع السابق، ٩٤/١.

فتنوعت الأساليب الإقناعية في معالجة تلك القضايا وتعددت، فتارة تهدف إلى التقرير، والتوضيح، والتعليل، والاستدلال، وأخرى إلى التبكيت، والتحقير، والتشهير، والتقبيح، والإنكار، وامتزجت بنمط عال من وضوح الدلالة، وإصابة الإجابة، وسلاسة العبارة.

- يُعد المقام عنصرًا أساسيًّا في تكوين المعاني الحجاجية ونجاحها؛ مما حقق لخاصية الإقناع دورًا متناميًا في رسوخ الحجج وقوتها.

- استعمل السيرافي معجمًا بلاغيًّا غنيًّا بتنوع المعاني الدلالية؛ إذ وظف البديع في حلية جمالية أضافت للنص إيقاعات موسيقية متناغمة ذات أثر إيجابي في إيصال الحجج؛ حيث بلوغ المراد، وإقناع السامع، وهذا وجه من وجوه القول، جعل من البديع عنصر بلاغة وإبانة.

- لجأ السيرافي إلى إبراز الثنائيات الضدية في صورة حجاجية تفيد أغراضًا أساسية، وتشكل رؤية جديدة في الإقناع العقلي، والإمتاع النفسي، وهذا مما ساعد في ثراء المعاني الدلالية، واندفاع المتلقي نحو تتبع المقاصد، ومنح السياق جاذبية فعالة، حيث الانسجام والاستمالة.

- تبدو أسئلة السيرافي ومناقشاته لخصمه دقيقة، تدع الخصم في حيرة لا يملك معها ردًّا مقنعًا، إذ لجأ خصمه في مواطن عديدة إلى الصمت، والسكوت، والإغضاء، والإطراق؛ مما سهل طريق الإذعان والتسليم، ففلسفة يونان لم تنفع خصمه بشيء متزن؛ بل أمدته بقواعد وضعها في غير موضعها الصحيح، وحفظها على غير هدى.

فهرس المصادر والمراجع

❖ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين (١٤٢٠هـ)، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت – لبنان: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

❖أرسطو، **كتاب أرسطو فن الشعر**، قام بالترجمة العربية وتقديمها والتعليق عليها: إبراهيم حمادة، مكتبة الانجلو المصرية.

❖الإشبيلي، أبو بكر، محمد بن الحسن بن عبيد الله الزبيدي، **طبقات النحويين واللغويين**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف.

❖ابن أبي الإصبع المصري، **بديع القرآن**، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر.

❖التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر (١٤٢٢هـ–٢٠٠١م)، **المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم**، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

❖التنوخي، أبو المحاسن الفضل بن محمد بن مسعر (١٤١٢هـ–١٩٩٢م)، **تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم**، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، القاهرة: هجر للطباعة والنشر.

❖التوحيدي، أبو حيان (١٤٣٢هـ–٢٠١١م)، **الإمتاع والمؤانسة**، اعتنى به وراجعه: هيثم خليفة

الطعيمي، صيدا – بيروت: المكتبة العصرية.

❖الجابري، محمد عابد (٢٠٠٩م)، **بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية**، ط٩، مركز دراسات الوحدة العربية.

❖الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي.

❖الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، **أسرار البلاغة**، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

❖الجرجاني، علي بن محمد الشريف (١٤٠٣هـ–١٩٨٣م)، **التعريفات**، ط١، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

❖الحباشة، صابر (٢٠٠٨م)، **التداولية والحجاج مداخل ونصوص**، ط١، سورية – دمشق.

❖أبو حمدة، محمد علي(١٤٠٤هـ–١٩٨٤م)، **في التذوق الجمالي لمناظرة أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متّى بن يونس القنائي في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر**، ط١، بيروت: دار الجيل، مكتبة المحتسب بعمان.

❖الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن سنان الحلبي (١٣٧٣هـ–١٩٥٣م)، **سرّ الفصاحة**، صححه وعلق عليه: عبد المتعال الصعيدي، مصر: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده.

❖الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، **تأويل مشكل القرآن**، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

❖الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (١٤٠٥هـ–١٩٨٥م)، **سير أعلام النبلاء**، مجموعة من المحققين باشراف: شعيب الأرناؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة.

❖الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر (١٣٧٦هـ–١٩٥٧م)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، بيروت – لبنان: مكتبة إحياء التراث العربية.

❖الزركلي، خير الدين محمود بن علي الدمشقي (٢٠٠٢م)، **الأعلام**، ط١٥، دار العلم للملايين.

❖السبكي، بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي (١٩٧١م)، **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

❖السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان**، بيروت – لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر.

❖السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **عقود الجمان في علم المعاني والبيان**، بيروت – لبنان: دار الفكر للطباعة والنشر.

❖الصديق، حسين (٢٠٠٠م)، **المناظرة في الأدب العربي – الإسلامي**، ط١، مكتبة لبنان.

❖الصعيدي، عبد المتعال (١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م)، **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**، ط١٧، مكتبة الآداب.

❖صمود، حمادي (٢٠١٠م)، **التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس –**

مشروع قراءة–، ط٣، دار الكتاب الجديد المتحدة.

❖صوله، عبد الله (٢٠٠٧م)، **الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية**، ط٢، بيروت . لبنان: دار الفارابي.

❖صوله، عبد الله (٢٠١١م)، **في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات**، ط١، الشركة التونسية للنشر.

❖عادل، عبد اللطيف (١٤٣٤هـ–٢٠١٤م)، **بلاغة الإقناع في المناظرة**، ط١، بيروت – لبنان: منشورات ضفاف.

❖العباسي، أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمن، **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، بيروت: عالم الكتب.

❖عبد الرحمن، طه (٢٠٠٠م)، **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط ٢، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

❖العزاوي، أبو بكر (١٤٢٦هـ–٢٠٠٦م)، **اللغة والحجاج**، ط١، الدار البيضاء.

❖العقيلي، كمال الدين، عمر بن أحمد هبة الله، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر.

❖العمري، محمد (١٩٨٥م)، **بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، الخطابة في القرن الأول نموذجًا**، ط٢، المغرب: أفريقيا الشرق.

❖ابن فارس، أبو الحسين أحمد (١٣٩٩هـ–١٩٧٩م)، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر.

❖فشل، أحمد أحمد (١٩٩٦م)، **علم البديع – رؤية جديدة–**، القاهرة: دار المعارف.

❖القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (١٤٠٦هـ–١٩٨٢م)، **إنباه الرواة على أنباه النحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، القاهرة: دار الفكر العربي.

❖مطلوب، أحمد (١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م)، **معجم المصطلحات البلاغية وتطورها**، ط١، بيروت – لبنان: الدار العربية للموسوعات.

❖ابن المعتز، أبو العباس عبد الله بن محمد (١٤١٠هـ–١٩٩٠م)، **البديع في البديع**، ط١، دار الجيل.

❖المغربي، أبو العباس أحمد بن محمد بن يعقوب، **مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح**، تحقيق: خليل إبراهيم خليل، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية.

❖المودن، حسن (١٤٣٥هـ–٢٠١٤م)، **بلاغة الخطاب الإقناعي، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب**، ط١، كنوز المعرفة.

❖ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (١٤١٤هـ–١٩٩٤م)، **لسان العرب**، ط٣، بيروت – لبنان: دار صادر.

❖أبو موسى، محمد محمد (١٤١١هـ–١٩٩١م)، **دراسة في البلاغة والشعر**، ط١، القاهرة: مكتبة وهبة.

❖ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق (١٤١٧هـ–١٩٩٧م)، **الفهرست**، تحقيق: إبراهيم رمضان، ط٢، بيروت – لبنان: دار المعرفة.

Argumentative values in Al-Badi’, the debate of Abu-Saeed Al-Serafi with Matta Bin Younus Al-Qinai as a model

Amina bint Saud bin Khishan Al-Qurashi
Assistant Professor at Al-Baha University,
Faculty of science and arts in Al-Mandaq
, specializing in rhetoric and criticism

***Abstract*. Research heading:** Argumentative values in Al-Badi’, the debate of Abu-Saeed Al-Serafi with Matta Bin Younus Al-Qinai as a model.

Research topic: A study of scientific formation for Al-Serafi and its impact statement in eloquences arguments by debating with Matta and searching for debate paths in the rhetorical lesson. Moreover, standoff the combination of Al-Badi' argumentative method in terms of aesthetic function with the requirements of persuasion, counterpoint, encounter, and analogue observance are rhetorical tools that directing meanings towards persuasion and enjoyment together.

Research aim:

1. Following the argumentative values of Al-Badi’ for Al-Serafi debate, it’s a phenomenon that requires tracking for having a good statement of meanings that desired in the most beautiful, elegant and impressive images.
2. Linking the functional phenomenon of Al-Badi’ with the persuasions requirements, as it may be under the illusion that Al-Badi’ is far of need and persuasion from its improving function.
3. Explaining the aesthetic secrets and semantic functions of Al-Badi’ that accompanies the evidence and supports them in manifesting the intended purpose.

Research curriculum: In the theoretical aspect, the study took into account the descriptive approach based on tracking and extrapolation of phenomena related to the title, from two aspects: First aspect is Al-Badi' argumentation and the second: Al-Serafi debate. On the practical side, the analytical method in Al-Badi' studying and its impact on achieving persuasion by decisive evidence, and its impact on the listeners’ audience.

Research results:

1. The argumentative values of counterparts, corresponding, and consideration of peer, have effectively contributed to the growth of mental meanings through two matters: First is achieving influence, appealing, and gaining the support of the recipient, the second: achieving persuasion, binding the argument, removing ambiguity, and this is the core and essence of rhetoric, for each method - of them - is an artistic tool and a rhetorical machine that works to generate more powerful and deeper argumentative energies More coherent, and more beautiful.
2. In this debate, Al-Serafi paused on the accuracy of his speech, where he combined graceful, quality and creativity in texturing and forming meanings, so he formulated strict arguments, decisive proofs, and enlightening evidence according to a scientific, rational basis. Due to the purpose of awakening Matta Bin Younus and correcting the philosophy and logic that he claimed. In order not to release matters according to the requirements of fanaticism without a clear argument rather, it is according to the requirements of the mind from consideration, observation, contemplation, and reasoning.

مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الانسانية، م٢٩ع٥ ص ص: ١٤٩ – ١٩٨ (٢٠٢١م)
DOI:10.4197/Art.29-5.6